مَاريـونت

رواية

نور شحط

المحتويات

الإهداء

1 - الزواج يجعل منك شخصًا آخر

2 - الحرية فيما نفعل لا فيما نقول

3 - انتبه! الذاكرة ترجع إلى الخلف

4 - لكل شيءٍ تحت السموات وقت

5- نفس الأشياء وبنظرةٍ مختلفة

6- قلبٌ واحد....وطنٌ واحد

ـــــ الإهداء ـــــ

أهديها إلى الزمن الذي يلعب مُقامرًا بالأيام

يومٌ لك ويومٌ عليك.

1

الزواج يجعل منك شخصًا آخر

لا أدري كم من الدقائق مضت وأنا غافل عمّا يحدث من حولي، كل الذي أعرفه أن الوقت لم يدم طويلاً فقد قطعه صراخ زوجتي المفزع الذي خاب معه كل التوقعات بعد العناء المبذول الذي هدرته طوال اليوم!

فقد أخذت تنادي وهي تصرخ:

شان... شان هيّا استيقظْ فَالبيت يحترق!

صحوت مذعوراً من هول الدخان الذي ملأ عيناي من أول نظرة، فقمت منتفضاً على عجل مما أوقع جوّالي العجوز على الأرض لافظاً أنفاسه على نغمة أنين أخبرني عبرها أنّه انطفئ، لا وقت لديّ لمواساته فهناك صوت إنذار أقوى منه، ونيران تتسابق نحو القمة من الستارة المنهدلةِ للجهة المقابلة للأريكة التي كنت نائماً عليها.

شددت الستارة بقوة ثمّ رميتها على الأرض ورحت أقذف عليها الوسائد محاولاً إطفاء النار المشتعلة، بينما سخط جوليا يتساقط عليّ كزخ المطر، وهي تقول غاضبة:

ماذا كنت تنوي أن تفعل يا ساذج؟ وما الذي يجعل البيت يشتعل هكذا وأنت نائم؟ وما هذه الروائح المقززة! متى عقلك ينضج يا شَان وتبتعد عن مثل تلك الترهات؟ من كنت تنتظر؟ ولمَ تلك الفوضى منتشرة في أرجاء البيت!

لم أعلّق على أي حرف من كم الأسئلة التي انهالت عليّ فحق الردّ هنا ليس في أوانه، والنار ما تزال تأكل ما وسعها...

ركضت إلى الردهة لأحضر من الخزانة قارورة الإطفاء الصغيرة وبدأت بخضها متوجهاً نحو الحريق لإطفائه، ثمّ قمت بفتح الرغوة البيضاء عليه إلى أن خمد نهائياً.

ثمة أولويات في ترتيب الأمور، فالأكبر غالباً يكون في المقدمة

ثمّ يأتي بعدها الأصغر فالأصغر... إلا في حالات المواجهة يصبح كل ما هو صغيرًا مهم.

جلست القرفصاء أستجمع أنفاسي المهدورة في محاولة للإنتقام من الرتابة التي خطفت أجمل الأحاسيس بيننا، ولم تترك سوى

الشعور بالذنب على مبادرة كان بإمكانها أن تجدد عهداً عُقد منذ سنوات...

ولكنّ الشيئ الجميل في الأمر أنّ قليلاً من الفخر استطاع أن يتسرب خلاله مع كل الذي حصل ليقوم بتقليدي وسام البطولة جاعلاً مني فارساً من غياهيب الزمن الغابر، عندما كان للرجل حضور ومغذى في كل شأن وحال، مما دفعني للجرأة والقول بكل شجاعة: حسناً عزيزتي، لقد سيطرت على الوضع لم يعد أي شيء يثير الفزع مادمت أنا موجوداً.

وبدلاً من الحمد والشكر على رد القضاء، شنت جوليا مجدداً هجوماً مضاداً عليّ، قائلة بغضب:

أنا أذهب للعمل وأتعب وأشقى طوال النهار وأنت غير مهتم إلا بنصب المقالب والتفاهات! أخبرني... هل ذهبت اليوم للبحث عن عمل؟ أم أنك تنتظر العمل ليأتي اليكْ!

ثمّ تابعت: ليس بالضرورة أن تكون مديراً في مدرسة كما السابق، عليك أن تجد عملاً يدخّر مصروفك الشخصي على الأقل... لقد تعبت من حمل المسؤولية وحدي وأنت لا شيئ يشغل بالك سوى

ملذاتك الفارغة... ألا تخجل من أفعالك المراهقة؟ ألا تتوقف عن مثل تلك التصرفات الصبيانية!

أجبتها: رجاءً جوليا اخفضي صوتك، فالجيران يشتكون دائماً من صراخك متسائلين عن السبب الذي يجعلك في حالة الهيجان المستمرة كالبركان الثائر... لا أدري كيف التهمت النيران الستارة فقد كانت بعيدة عنها، لست غبياً لأضع الشموع بجانبها!

تابعت قائلًا لها: ثمّ كيف أقنعك يا عزيزتي أنني هنا لا عمل لي إن لم أكن أملك فانوس علاء الدين السحري الذي يحقق الأمنيات! فقد فتشت كثيراً ووجدت أن عمل السوريين هنا يقتصر في عدد من القطاعات المحدودة في لبنان إن حصلوا على تصريح عمل، والقطاعات أنت تعرفينها لقد أخبرتك إياها مئة مرّة وهي:
الزراعة، تنظيف، عامل، قطاع البناء، مندوب مبيعات، ممثل التسويق، خياط، ميكانيكي، وحارس مستودع، وفي الصيانة والحدادة والتنجيد...

جميعها لا تليق بالطبقة التي تنسبين نفسك إليها فكلما أخبرتك أني وجدت عملاً ترفضين المباشرة به بحجة أني لا أملك القوة البدنية لمثل تلك الأعمال ولا جدوى الآن من تعلّم مهنة أو حرفة جديدة....

ولكن في الحقيقة هو لا يناسب الخط الذي رسمتيه، ستشعرين بالإحراج إذا سألك أحد من زملائك في العمل أو احدى صديقاتك إن كنت أعمل إحدى المهن السابقة فهي تخدش البريستيج الذي يقيدك بقيود مخملية...

لم أصمت حينها، بل تكلمت عن مشاعري أيضًا قائلًا:

أنت لا تعلمين كم الأمر يألمني أن أجلس في البيت لا عمل لي سوى التنظيف والطبخ والإعتناء بقطك راموس، بل ربما تعلمين وتتجاهلين مقابل أن لا تكسري ذاك القيد الحريري الذي يقيدك... بينما أنا لا أكترث لمثل تلك الترهات المهم عندي أن أعمل. بشرف وَأتحرر من نطاق الهوان الذي يخنقني.

تفاجأت من الجرأة التي علت مرابعَ الكرامة عندي حين أفرغت القليل من مخزون الصبر الممتلئ بالصمت، شيءٌ ما دفعني لذلك.... إنه الصمت ذاته!

عندما يصل بك الصمت حدّ الإختناق

سَتصرخ رغماً عن أنفك كي تتنفس.

لقد بتُّ كَمن سكب الزيت على النار! وبانتظار انفجار قنبلة موقوتة قد نُزِع صمّام الأمان منها، ازداد وجه جوليا احمراراً

وعلت حدة صوتها متابعة ما بدأته في تعداد تقوم على تكراره لي دائماً، فردت تصرخ بصوت عالي:

أولاً: أنا حرة في بيتي، أصرخ كما أشاء عندما يكون لدي زوجاً مثلك

ثانياً: إن لم يعد يهمك الوسط المحيط بك كما السابق لأن هنا لا أحدّ يعرفك فهو ما يزال يهمني...

قل لي من تُصاحب أقول لك من أنت وعاشر السعيد تسعد وعاشر الشقي تشقى... أليسَ هذا ما تقولونه عندكم!

ثالثاً: القط الذي تتحدث عنه هو قطك أيضاً فأنت من أطلق عليه اسمه بناءً على إعجابك بلاعب كرة القدم راموس وأنت من يقضي معظم الوقت معه أم أنك تنكر!

رابعاً: إن لم يكن لديك كلاماً يسرني ويجعلني أطير فوق السحاب عدْ للصمت.

وتابعت قائلة: ثم تعالَ قل لي أنتم الرجال لمَ تتذمرونَ من صراخ النساء في البيت وهو ليس سوى تنفيس لأحاسيسهنّ الدفينة وقد يعبر هذا الصراخ عن أسباب كثيرة تجهلونها.

اقتربت منّي مسرعةً مُلحقةً كلماتها بركلةٍ أوقعتني طريح الذل الذي أعيشه معها كلّ يوم.

لم أجرأ أن أفتح فمي ثانيةً ببنت شفة، فمهما قلت وشرحت سيطير كلامي في عواصف غضبها هباءً منثورا... وسيزيد من اشتعال غضبها لتحرق الأخضر واليابس بكل بساطة ولربما تَصلني لكمةٌ تسحق واجهتي أنا في غنى عنها.

سيبقى الصمت اللغة التي يجيدها العقلاء أو الجبناء لا فرق، عندما تبدأ زوبعة الثرثرة المجنونة في التراشق دون إدراك إلى أي جهة ستحط بنا بعد ذلك!

جعلتها تُفرغ ما بداخلها إلى أن هدّها التعب، ثمّ تناولت لقيمات من الطعام، وبعدها دخلت غرفتها وأغلقت الباب ورائها ثمّ راحت مسترسلة في نومٍ عميق!

أمسكت راموس هامساً في أذنه:

لم أعد أحتمل مزاج صديقتك السيء، سيأتي يوم وأترك لها كل شيء وأرحل ولن أدعها تعرف عني أي خبر...

في ليلة الزفاف أهدتني زوجتي صدمة عنيفة قمت على ابتلاعها بأعجوبة، ثمّ ما لبثت أن توالت الصدمة تلو الأخرى من قصص

اكتشفتها بنفسي، أدخلتني في عراك مع المفاجآت، إلى متى سأبقى صابراً صامداً... لا أدري!

أسلوب المدّ والجذر هذا يجعلني أقف متردداً في اتخاذ أي قرار، يوماً يكون الجو صافياً والبحر هادئ أطيب المكوث والبقاء ويوماً يكون عاصفاً يحاول إقتلاعي من الجذور ليخبرني أنه آن أوان الرحيل.

كلمة صغيرة قد تفقد العقل وكلمة أخرى قد تنعش القلب.

اختيار الشخص المتكلم بعناية أهم بكثير من طريقة الإنصات.

هفوة صغيرة قد تحفر بئراً من الألم لا يجف، فلا تستهين بكلمة قد تملأ فنائك الداخلي صخباً يُودي بك إلى خراب....

حاول أن تنتقي الجهة التي سوف تنصت لها، حتى لا تقع في حفرة ساعدت الآخرين في حفرها لك.

إلا أن نهاري كان له بداية جيدة حين وردت رسالة إلى بريدي الإلكتروني مفادها...

"تحية طيبة وبعد...

يسعدنا مشاركة الكاتب بإقامة حفل توقيع للكتاب (شبابيك القفص الذهبي) ضمن فعاليات معرض بيروت الدولي المحدد من الثلاثين من شهر نوفمبر لغاية الثالث عشر لشهر ديسمبر الجاري لهذا العام... وفي حال رغبتم بالمشاركة سيتم الاتفاق معكم على باقي الإجراءات.

ونعلمكم بأننا نود طباعة النسخة الثانية من الكتاب، فإذا لديكم أي تعديل حوله أو إقتراح نرجو موافاة إدارة الدار به بأقرب وقت.

طبتم بخير ولكم منّا أطيب الأمنيات مع أعطر التحايا لحروفكم"

شعرت بتلك العبارات أن أشعة الشمس انحنت لي أخيرًا لإستقبال يومٍ جديد مع ورود هذه الرسالة من دار النشر التي تبنت تكاليف طبع كتابي، والنشر بكافة المكتبات العربية بالإضافة إلى المشاركة في مختلف المعارض الدولية للكتاب...

لقد عصرني الخبر في الصباح فرحًا فهذه أهم محطة من مشوار الكتابة، أن يلتقي الكاتب وجهاً لوجه مع القرّاء ليقرأ بدوره ما كُتب في عيونهم وما خُطّ على وجوههم من إعجاب في أجواء تحتفل بهم لتعانق الصفحات وتشمّ عبق الأوراق من خلال أصداء القصص التي نحلم أن نعيشها في الواقع.

البدايات ليست سهلة كما نظن، فكل بداية يلزمها الوقت الكافي والمكان المناسب حتى تفرض وجودها في خضم إزدحام المشاركات المختلفة... فقد استغرقت بداية ما كتبته الكثير من الوقت بالرغم من أني أحلم بها كل يوم.

لا جديد فيما قلته ومن يقول لك أن أذرار الحروف تتسابق على لوحة حاسوبه حين يقرر الكتابة فهو كاذب.

فمهما بلغت الموهبة من صاحبها حدّ الإبداع، لا بدّ من مقومات إستثنائية تدفعه للتعبير عن مكنونه بشكل سليم وإلا ستخرج كلمات يعاقبنا فيها الكاتب على ذنبٍ لم نقترفه سوى قراءة ما كتبْ.

خرجت وقتها من غرفتي والابتسامة مرسومة على تعابير وجهي، دلّ من خلالها على وجود مؤشرٍ ومض في مرمى نظرات زوجتي فأرادت أن تعرف سببه... وقبل أن أسمع صباح الخير، باغتتني بالسؤال المعتاد حين أقوم بمثل تلك الحركة قائلة لي:

لمَ تبتسم أمام شاشة جوالك! ماذا هنالك؟

وكأن البسمة جنحة عليّ دفع ثمن فعلتها! فأجبتها:

ما بالك يا قرّة عيني! ألا يوجد أولًا صباح الخير؟

ردّت بسرعة تجاوزت سرعة الضوء لتسبق مهلة التفكير في الإجابة على سؤالها:

أولًا صباح الخير

والآن أجبني لماذا كنت تبتسم؟

أجبتها: صباح الخيرات، لا شيء مهم أبدًا فلا داعي للغيرة

إنها مجرد دعابة قرأتها على الفيس بوك

ردت عليّ: أنا لا أفهم ما الذي يجعلك تستقبل يومك كل صباح بذاك العالم الذي يخزّن ملايين الأقنعة...!!؟

رمت جوليا كلماتها على مسامعي وهي تتابع ترتيب هندامها للذهاب إلى عملها في شركة للعِقارات الإستثمارية، وكأنها لا تعلم أننا في عالمنا هذا نعيش مع بعضنا وَبحوزة كل منّا أقنعته!

حتى أننا أحيانًا نستخدم تلك الأقنعة مع أنفسنا إن احتاج الأمر مدركين تمامًا أنها تقوم بتزييف حقيقة ما في داخلنا من مشاعر، إنه عالم مليئ بالكذب والخداع، استطاع أن يصنع من البشر ممثلين بارعين على مسرحٍ واسع يدعى الأرض.

لم يكن بحوزتي متسعًا من الحرية في خوض معركة معها من الصباح وتكبّد المزيد من الخسائر، فأجبتها وهي خارجة عند الباب:

أنت تعلمين عزيزتي أني أتابع صفحات الأخبار من أولى ساعات الصباح حتى أطمئن على أهلنا في حلب والمستجدات التي تحصل عليهم...

قاطعتني: حسنًا....حسنًا.

رأيت على وجهها وهي تطبق باب المنزل ورائها، علامات عدم الاكتراث بشرح مبررات قد سمعتها كثيراً، فلقد اعتادت على كلمات لم يعد لها رنّة في صخب العبء الذي يشغل حيّزاً كبيراً في مرمى المسؤوليات التي تحملها.

دخلت بعدها المطبخ لإعداد فنجان قهوتي وقد كان كل الحق مع نفسي التي أخذت تحدثني:

لا شيء يُرضي زوجتك، لا شيء يشفي غليلها...! عشرة سنوات تناضل كي تفهم ما يدور في رأسها، عشرة سنوات تحاول أن تتوغل في غابة أفكارها كي تمسك ببنت واحدة من بناتها على الأقل، لكن عبث...

تخرج منها دائمًا كما دخلت خالي الوفاق من أي فكرة، كمن يُفتش عن إبرة في كومة قش!

أنا لا أصدق كيف ألفتَ كتاباً يتحدث فيه عن قواعد لنجاح الحياة الزوجية بينما ما تزال متزوجاً بالرغم من عدم وجود أي قاعدة من التي كتبت عنها في حياتك مع زوجتك! ...

كيف تصل بك الجرأة بأن تضع قواعد ترتفع بها بيوت الآخرين وبيتك يفتقر لقاعدة واحدة، قاعدة واحدة فقط يا فيلسوف زمانك لتبني عليها منزلك!

كيف لك أن تكتب عن شيءٍ لا تملكه أو لم تعشه فالكتاب وحده يشهد أنك في غاية الدهاء لطمس معاناة عشرة سنوات في زواجٍ استمر كل تلك المدة ببضعة قواعد لا تملك واحدةً منها!

نعم، هذه هي الحقيقة...عشرة سنوات مدّة كافية لبناء جداراً يفصل بيني وبين زوجتي، كنت مع كل محاولة لتسلقه تأتي هي لتزيد في ارتفاعه...

لم أترك وسيلة إلا وقمت بتجربتها في هدم ذاك الجدار! مع ذلك كله لم أيأس فقد قررت بتلك المناسبة أن أقيم سهرة لطيفة لهذا المساء في المنزل أفاجئ بها جوليا عند عودتها من العمل.

أردت بذلك أن أضرب ثلاثة عصافير بحجرٍ واحد، العصفور الأول الإحتفال بتلك الدعوة التي أرسلتها لي دار النشر والعصفور الثاني إخبار جوليا بأمر الكتاب وحفل التوقيع أما العصفور الثالث والأَدسم هو الإنتقام من الملل الذي سيطر على حياتنا في الأيام الأخيرة.

الملل أمهر قاتل لأي علاقة بشرية...

مجرم متسلسل له من حالات انتهاك السعادة الزوجية أرقاماً لا تُحصى حاملاً الرتابة خنجراً يصل إلى جميع الرقاب

وبالرغم من ذلك ما يزال حرّاً طليق...!!

وَلإمساك ذاك المجرم خططت له مكيدة لأجعلهُ يقع فيها مستسلماً رافعاً الراية البيضاء.

قمتُ وكلّي نشاط وَتفائل على إعداد أشهى المقبلات الخفيفة وعمل اللازانيا بصفائح العجين الخضرا، وَصنعت حلوى التشيز كيك بطعم التوت التي تحبها جوليا، فقد لاحظت في الآونة الأخيرة تدهور صحتها وشدة نحافتها لسوء نظامها الغذائي.

ثمّ قمت بتزّيين المنزل بالشموع المعطرة ونثرت بتلات الورد الأحمر على الأرضيات والمفارش ثمّ هيأت مشغل الموسيقى على أنغام هادئة....

وضعت غطاءً لطاولة الطعام من الدانتيل فوقها الصحون المرسومة بالألوان الزاهية وفي المنتصف كلا الجهتين شمعدانين من الخشب الأبنوس عليهما شموع بشكل كلمة LOVE و صنعت من محارم السفرة شكلًا فنيًا على هيئة أوزة، ثمّ وزعت الشوك والسكاكين حسب اتيكيت الطعام، بحيث تنبهر جوليا من دقة التنظيم، وأشعلت كل الشموع هنا وهناك على الطاولة وفي ممر الدخول الى غرفة الجلوس وغرفة النوم، وحتى الزوايا لم تفرغ من إضائتها ففي كل ركن كان له نصيباً منها...

لم يبق سوى قدوم زوجتي من العمل وتبدأ الحفلة.

وإلى حين قدومها رحتُ جالسًا على الأريكة أتنفس الصعداء لأرتاح استراحة المصارع، ممسكاً بيدي الجوّال مفتوحاً على وضعية تسجيل الفيديو أقوم بتوثيق ما حولي من أجواء رائعة قبل أن تعم الفوضى، أصوّر الورود المنثورة والشموع المشتعلة على شكل قلب في داخله مكتوب أول حرف S J بالورد المجفف، أدور بالجوال يمنى ويسرى ومن تحت إلى فوق...

لم أترك مكان إلا وصورته من مكاني هذا... ومن شدة انهاكي في تحضير المفاجأة رحت غافلاً مسترسلاً في سَبات عميق، لأنتفض بعدها مذعورًا إثر صراخ زوجتي على نبأ احتراق المنزل! ثمّ صار ما صار....

زوجتي سيدة عملية بكل معنى الكلمة، كل شيء حولها يُقاس بالمادة أي كم قيمته وكم من الوقت استغرق للحصول عليه ومدى أهميته وهل يستحق تلك القيمة أم أنه مجرد فقاعة....

باستطاعتها أن تعمل بلا كدّ أو تعب مقابل أن تثبت أنها قادرة على عمل ما لا يستطيع الآخرون فعله، ذو شخصية قوية جداً، مستعدة لمحاربة جيشاً كاملاً مقابل أن تحصل على لقب تدخل به التاريخ...

لها نظرة حادة تعرف تماماً متى تلقيها ومتى تحتفظ بها تحت زجاج نَظارتها الطبية، لرموشها مُبراة غير قابلة للعطب...

قليلة الابتسام وحين تبتسم تلفّ ابتسامتها وشاحاً مطرّزاً بالأناقة، منسوجاً بخيوط من المجاملة بحيث تجعلك لا تكترث لنوع الخّامة التي غطتّ ذاك السحر...

جوليا تجاوزتني عدّة أشهر من مشوار العمر، بضعة أشهر لا تستحق الذكر لكن في مجتمعنا بإمكانها أن تُلقي محاضرات ولسوء حظها أبدو أصغر منها بسنوات ذلك لضآلة بنيتي الجسدية وملامح وجهي الناعمة التي لا تناسب عمري، فمهما حاولت أن أفعل من مجهود لأعطي سنوات العمر حقها تبوء جميع المحاولات بالفشل الذريع إلى أن استسلمت لمظهري متصالحًا معه بسعة صدر.

بينما هي اختارت أن تسير عكس اتجاهي كي تبدو أصغر من عمرها فعرفت جيداً كيف تقلب عدّاد الزمن نحو الهبوط فهي كلما ازدادت في تقدم العمر ازدادت جمالاً....

ذلك لأن حسب قولها أنّ المحافظة على المظهر الخارجي ضرورة والرضى حاجةٌ لا بدّ منها لينبع الجمال من السلام الداخلي ولها عبارة ترددها:

إذا لم تكن على وفاق مع شكلك الخارجي لا تنتظر المديح من نفسك فالمرَايا الجيدة لا تكذب.

وأنا ما عليّ سوى مراقبة هذا الجسد المرمري من بعيد، فاللمسْ ممنوع والاقتراب من المسموح محظور إلى أن أماتت لديّ شعور الرغبة فيها فأمست كل شيء حولي إلا أن تكون زوجتي.

هي ملكة الأنوثة عندما نكون خارج المنزل أمّا عندما نكون لوحدنا تخلع قناعها الناعم لتظهر على حقيقتها منقلبة مئة وثمانين درجة تلبسني فيها صدمة لم تكن ضمن قائمة الاحتمالات....

أقف مذهولاً في كم التناقض بين ما لقنني إياه والدي من أخلاق نبيلة وبين ما أعيشه كل يوم على أرض الواقع!

جعلتني أتسائل كيف لها أن تحمل شخصيتين دون تعب فهي في المنزل وحشاً كاسر يبطش بيده دون رأفة، وحرباء ملّونة تملك لساناً سليطاً ينفث شتائم شتّى بلا معايير للإحترام أو التربية فتقوم بتشويه معالم الجمال لديها بحيث لا يعود له قيمة نهائياً مقابل آلاف المرايا....

فالجمال الداخلي بإمكانه أن يتغلب على أغلى مساحيق التجميل بإمكانيات بسيطة كابتسامةٍ عذبة وحياءٍ عفوي.

أعترف أن جمالها ودلعها كانا مثل يدا الملقط الذي سحب بيّ إلى مصيدة الزواج... كنت قد أنهيت علاقة حب فاشلة من طرفٍ

واحد استنفذتُ فيها مشاعري العاطفية مقررًا عدم خوض التجربة مرّة أخرى، إلى أن عرفت جوليا في رحلة سياحية إلى تركيا، حيث كانت تعمل منسقة رحلات في مكتب سياحي آنذاك ثم بدأت قصتنا باهتمامها واحتضاني على أساس مفهوم الصداقة، وما لبثت أن تحوّلت إلى علاقة حب بين اثنين رغم افتقار بعض مقومات العلاقات الناجحة من أهمها تقارب السن والبيئة الاجتماعية والبنية الجسدية فقياس ملابسي لا يتخطى قياس S بينما هي فتبدو مثل عارضة خرجت للتو من دار الأزياء.

أهم القرارات قبل الشروع في بدء حياة زوجية هو حُسن اختيار الشريك، لذا يجب دراسة الموضوع بطريقة فكرية صافية، لأن الحب وحده لا يكفي ليكون صاحب القرار في اجتياز تلك المرحلة.

ومع ذلك كله ضربنا بكل الفروقات عرض الحائط بتصميمَنا على الزواج، غير آبهين للنَقد والنصائح فقد كان لكل منّا حينها أحلام يرى تحقيقها مع الآخر، وأن تلك التناقضات ليست سوى مطبات وضعها المجتمع لعرقلة المسير.

لكل امرءٍ منّا عالمان... عالم خيالي وآخر واقعي، كلما زاد الإِختلاف بينهما زاد الألم لأنّ الحقيقة تفوز دائماً أما الخيال ليس سوى قصرًا من الرمال تسكنه الآمال...

ولا بد من يومٍ نقول فيه الواقعُ وقع والوهم هرب.

عشت أنا وجوليا بعد زواجنا ما يقارب السنتين في مدينة حلب ثمّ انتقلنا إلى بيروت، لم يكن إتخاذ قرار النزوح إلى لبنان سهلاً عليّ إلا أنه كان لا بدّ منه، فمنذ بداية تصاعد الأزمة في مدينة حلب انقسمت المدينة إلى قسمين، قسم في الجهة الشرقية من المدينة وقسم في الجهة الغربية منها.

ومنذ ذاك الحين صارت الجهة الشرقية من المدينة تشهد معارك شبه يومية أدت إلى حالات نزوح كبيرة لسكان المنطقة إلى المنطقة الغربية بعد دمار منازلهم أو ترحيلهم منها عنوة، وبما أن منزل أهلي في تلك المنطقة المنكوبة كان لا بد من خُروجهم منها والانتقال للعيش معنا أنا وجوليا كون منزلنا يقع في الجهة الأخرى من المدينة....

إلا أنّه سرعان ما اندلعت حرب داخلية بين والدتي وجوليا فكلاهما لا يموت لهما طيب، أي ليس بإمكان أي واحدة منهما أن تقدّم تنازلاً واحداً في أي موضوع كي نستطيع العيش بسلام....

بالإضافة إلى الفجوة الكبيرة التي حفرتها إختلاف الثقافة والبيئة التي زادت من المسافة بين السيدتين.

ثمّ أتى قرار تحويل المدرسة التي كنت مديراً فيها إلى مبنى لإقامة النازحين من الأحياء الشرقية لقربها من المنطقة.....

مما جعل جوليا تحسم فكرة السفر باتخاذها قرار المغادرة إلى بيروت، وهنا بعد مكوثِنا بِعدة أيام حصلتْ هي على فرصة عمل في شركة خاصة للمقاولات وقد ساعدها في ذلك اتقانها عدة لغات وحيازتها الخبرة في مجال استعمال الحاسوب والبرامج المختلفة بالإضافة إلى امتلاكها الجنسية الفرنسية التي سهلّت الأمر عليها.

بينما أنا لم تُحالفني شهادة الفلسفة الظفر بأي فرصة عمل فكنت تحت بند باحثٌ عن عمل أو بالأدقْ عاطلٌ عن العمل.

حالياً لا عمل لي سوى ترتيب الفوضى التي ألمّت بالصالة، رحت ألملم ذيول الفشل والخيبة تقهقه أمامي... لم أعرها أي اهتمام وتابعت مهمتي في التنظيف فعليّ إنهاء ما قمت على عمله ليكون كل شيئ في مكانه حين حلول الصباح.

وبدلاً من أن أكون أميراً كما في الأساطير التاريخية، بتُّ فقيراً أحلم بحياة الأمراء كما حالي الآن وغداً وبعد غد أتلقى الأوامر وأُنفذها دون اعتراض!

والآن أجني ثمار ما زرعت من محاولة فاشلة، فقمت بحصد جميع الشموع في صندوق ووضعته في أسفل درج من دروج النسيان ثمّ كنست الورود المنثورة ورميتها في سلة القمامة، ومسحت أسطحة الطاولات والأرض من الأوساخ التي خرجت من الحادثة المشؤومة.

بعد مضي الساعتين انتهيت أخيراً من توضيب المنزل، عاد كل شيئ كما كان في السابق أو كما تريد جوليا أن يكون إلا الستارة المحروقة وبعض الوسائد تحرروا من تلك الدكتاتورية إلى مكب النفايات وعليّ أن أدفع ثمن حريتهم عاجلاً أم آجلاً فلا شيئ يذهب هدراً عند جوليا.

عزائي الوحيد أن الطعام كان في المطبخ لحظة إندلاع الحريق ولم يكن في الصالة على طاولة الطعام وإلا فسد جميعه جراء الرغوة التي أطفأت بها النيران....

تناولت القليل من الطعام غارقاً في بحور طعمه اللذيذ وأمواج النكهات تلطم يداي اللتا أعدته، فلا ثناءً ولا شكورا من أقرب

الناس على المجهود الذي بذلته في تحضير أشهى المأكولات لأجل الملكة جوليا.

سامحك الله يا جوليا! تعلمين أن في قلبي حباً لكِ لو وزعوه على الكرة الأرضية لَملأها محبة بين الناس، لكنّ قلبي إختار أن يحبك أنت فقط من بين الجميع...

كلمة حب صغيرة تضعيها في قاموسك تغني عن حروف الأبجدية بأكملها! كفيلة في المحافظة على هذا الحبّ وإصلاح ما تهدم، شكراً واحدة تكفي لترفعْ بيّ درجات من درجة الإحباط إلى درجة التقدير، ولن ينقص من جبروتك ولن يقلل من شأنك بعض الإهتمام يا جوليا!

ألا ليت تقف هنا! ألا ليتها لا تتجاوز الكلمة!

فكلما بدأنا بالمناقشة والحوار في موضوعٍ ما سرعان ما يتحول إلى قذف الشتائم، والشتائم تتطور إلى التهديد بالضرب، والتهديد للأسف الشديد يتم تنفيذه...

هناك أشياء كثيرة تدور حولنا دون مبرر سوى أنها اعتادت الدوران، كذلك نحن البشر نعيش على ما اعتدنا عليه دون

المحاولة للتغيير بالرغم من وجود اقتراحات أفضل تعترض مسارنا....!

ونفسي لا تنفك أن تلومني في كل مرة أرضخ لزوجتي، ربما بل مؤكد أني المسؤول عن نتيجة الخنوع الذي أبديته عندما تعرّضت للعنف في المرة الأولى فقد عشت حالة من الصدمة والاستغراب كما القلق بخصوص استمرار زواجنا.. لكنّي تغاضيت عنه لسببين، السبب الأول هو برهان عدم صحة أن الفروقات التي واجهناها قبل الزواج قد تؤثر على حياتنا الزوجية، وذلك ردعاً لشماتةِ الأقارب والأصدقاء، أما السبب الثاني هو الحفاظ على مركزي من هيبةٍ ووقار أمام الكادر التعليمي حينها.

لقد انطبق عليّ المثل القديم الذي يقول (يداك أوكتا وفوك نفخ) حيث تروي القصة أن أحد رجال القرية حين قرر عبور النهر كان الطقس عاصفًا لا ينذر بقدوم الخير، وبالرغم من تحذيرات الناس له بعدم المخاطرة إلا أنه أخذ القربة بيديه ونفخ فيها ثمّ عقدها ليرمي نفسه معها مبتعدًا عن الشاطئ....

وما لبث أن اجتاز نصف المسافة وأصبح في بطن النهر حتى صار يستغيث الناس من الغرق، فما كان لهم إلا أن يقولوا له تلك الجملة (يداك اوكتا وفوك نفخ) أي أنه هو الذي صمم وقرر ثمّ نفّذ

غير معتبرًا لأي تحذير فلا يلومن إلا نفسه، وأنا كذلك مثل ذاك الرجل الطائش...

وهذا جعلني في حالة تخبّط مستمرة في مشاعري بين الضيق والندم على الزواج والذنب على ما أوقعت نفسي فيه، ويوماً بعد يوم صرّت أتقبل عنف زوجتي خوفاً من ابتعادها عنّي وتركي وحيداً في هذه الحياة.

السكوت عن أول خطأ يجعل من الأخطاء تتدفق دون توقف، إلى حين يغرق المرء في مستنقعٍ ضحلٍ لا قاعَ له.

العالم بأسره يناشد بحقوق المرأة ويُناهض بها ولا يعلم أن هناكَ رجال لا يملكون أبسط الحقوق!

رجال تُضهد في منازلها لفظياً وجسدياً ولا أحد يُبادر بتسليط الضوء لتلك الظاهرة المنتشرة في العتم، إذ لا توجد هناك اعترافات جدّية أو شكاوى تعلن عن وقوع حوادث تعنيف الرجل خصوصاً وأن الرجال الذين يتعرضون للعنف يعانون في صمت بسبب الحرج الكبير الذي سيتعرضون له إذا ما تحدثوا عن مشكلتهم مع الآخرين...

تفسير الرجولة هنا يشكل عائق أساسي أمام بقاء ظاهرة العنف ضد الرجال طي الكتمان.

أن تكون رجلاً حسب ما قاله الدكتور "دافيد فوينتس" في علم النفس معناه أن تكون لديك القدرة على تحمل الصعاب دون تذمر، ومن دون أن تظهر أي ضعف أو ألم.

يبقى الرجل المعنَّف بنظر المجتمع صاحب الشخصية الضعيفة

غير القادر على الإمساك بزمام أمور بيته وأسرته.

شيء مؤسف أن يكون التظاهر بالرجولة أسهل بكثير من ممارستها.

لذلك اتخذت الإنعزال ملجأً أهرب إليه من نظرات أصدقائي والقريبين منّي إلى أنّ أُصبتُ بالكآبة من كثرة ما حملته من أحزان وَمشاعر سلبية لفترات طويلة، مما أفقدني الحماس في نشاطات كثيرة كنت أتوق شوقاً لفعلها، والأسوأ منه افتقاري الشغف،

فالأول بإمكانك أن تعبر عن حالتك بالكتابة أو الكلمة أما في الثانية فأنت مسطح تماماً لا تملك شعور أو لذة لأي شيء تفعله.

فلم أعد أكترث لأحلامي أو أشعر برغبة في تحقيقها كل ما أشعر به تجاهها هو الأسف، مزيج من الأسف واللامبالاة تجاه كل شيء!

وتمر الأيام والشهور وأنا في مكاني كل ما أقوم به هو وضع تاريخ جديد أوهم نفسي بأن ثمة بداية جديدة هنا... لكنّ لا جديد!

غالبًا يكون اللا جديد هذا... مؤلم جدًا

مؤلم لدرجة أنه يقتل في كل لحظة شيئًا داخلك.

الأمر أصعب من أن يوصف، حالة من التيه لا تنتهي... إنها من مخلفات ما مررت به من صدمات وخيبات.

كان يجب عليّ أن أعيش فترة من الزمان لا تاريخ لها، أن أضع نفسي في شرنقة فكرية تجعلني في حالة حجرية كما وصفها درويش في قصيدته ليتني حجرًا.

وقد لقيت في تلك الحالة الحجرية المؤقتة دواءً ناجع لحالتي، فقد أعتقت نفسي من العالم وتوقعاته بمنحها صك غفران لا نهائي

وشيك على بياض حتى لو كان بلا رصيد... آمنت بنفسي فقط وبنيت لها عالمًا خاصًا بها حتى إن كانت وحيدة فيه.

وكما قالت الفيلسوفة سيمون دي بوفوار:

كنت أحس أني أملك من القوة ما يمكنني لقلب الأرض ولكنني لم أكن أجد حصاة واحدة أحركها، فقد كانت خيبتي شديدة إنني أكثر بكثير مما هو متاح لي أن أكونه أو أفعله.

إنها الساعة الثانية صباحاً بعد منتصف الليل وبما أنّه ذهب ميعاد النوم بأشواط ولم يعد لي قابلية لاستدعائه فالوقت مناسب لصحبة فنجان قهوة يتصفح معي آخر الأخبار السياسية وتفقّد صفحتي الأدبية في الفيس البوك.

الزواج وحده قادر على توليد أشياء غامضة لا ترغب بالإفصاح عنها مهما حاول معك الزمن... الزواج يجعل منك شخصاً آخر.

(لقلبك الفرح) اسم الصفحة التي لا تعرف عنها جوليا شيئاً، جمعت عدداً جيداً من المتابعين من أصقاع الأرض يضم مختلف الطبقات الإجتماعية والثقافية....

جميعهم أرادوا الهروب من واقعهم المرير إلى شهد الخيال، من ضوضاء العلاقات المحيطة بهم إلى هدوء المشاعر المسافرة عبر

همس الحروف ليرتاحوا في سلام ولو لبضعة لحظات يسرقونها من يومهم المزدحم بالضغوطات النفسية.

وأيّ هربٍ هذا! كما قالت الكاتبة غادة السمان

ما دامت الأشياء تسكننا وما دمنا حين نرحل هرباً منها نجد أنفسنا معها وجهاً لوجه.

ومع ذلك... إن لم يكن هروباً فلتكن نزهة أحاول فيها أن يكون للسعادة أملاً في محطة تبث كلمات لتصل إلى أشخاص ينتظرون عروجها إليهم بفارغ الصبر، أوثقها بحروف تحمل ميثاق مشاعر مترجمة لا يعرف أحدٌ صاحبها بين تاريخٍ شهد بزوغها وإمضاء شارك بلوغها، علّها ذات يوم تتحقق لتصبح في المستقبل حقيقة تقف شامخة تصرخ بملئ صوتها تقول: ها هي أنا هنا.

أحياناً نعيش الحرية في مكان لا نتوقع وجودها فيه

أو مع شخص بعيد يملك حضور لا يملكه القريب!.

أمسكتُ علبة السجائر وقرأتُ التنبيه المكتوب عليها "للتدخينِ سبب رئيسي في الإصابة بسرطان الرئة" أبتسم كمن أحد يبتسم لدعابةٍ قديمة كلما سمعها...! أبتسم نكايةً بالحزن.

رحت ماسكاً بلفافة التبغ الأخيرة لأقلبها بين أصابعي، أشتم اليوم الذي عرفتها فيه... عندما كنت مراهقاً أخبرني أحد أصدقائي أن السيجارة ستدخلك عالم الكبار بسرعة أكبر، مما تجعل منك رجلاً يملأ عيون الفتيات، فبدأت أدّخن بطريقة بريئة ثمّ أصبحت ألجأ إليها كلما أُصاب بالتوتر والضيق إلى أن باتت عادة تصوّر لي أنها تمنحني نوعاً من الإستقلالية وأني أبدو أكثر جاذبية عند حملها...

وَلإعتقادي أن ذلك قد يكون حلاً لبعض الضغوطات النفسية أو الاجتماعية التي تعرضت لها، متوهماً أن السجائر تبعث للراحة والهدوء في لحظات الغضب والاكتئاب.

منذ زمن وأنا كلما أفتح صفحة لقلبك الفرح لأكتب فيها أو لأرد على تعليقات المتابعين، أمسك علبة السجائر لأقرأ تنبيه وزارة الصحة وأبتسم ثمّ آخذ سيجارة وَأراقصها بين أصابعي لتصل ناضجةً إلى فوهة فمي فيتم حرقها على مضض!....

أما الآن فالأمر مختلف، فقد شعرت بالإقياء وهي تتمايل أمامي كأنها تقوم بِإغرائي لتَستولي على ما تبقى لديّ من صحةٍ وَعافية فتقضي على الروح المسجونة بين ضلوعي، وضعتها أمامي أتأملها بنظرة إستهزاء لربما حان وقت الصمود أمام تلك

الإغراءات المتكررة، فالأمر لا يتطلب سوى ثلاثة مقومات:
الأولى شخصية قوية تتصدى لتلك العادة السيئة

والثانية قناعة راسخة بمخاطر التدخين

أما الثالثة يقين بأن الحرية تكمن في عدمها والتحرر منها.

قسمت اللفافة إلى نصفين ثمّ رميتها في القمامة مع العلبة الفارغة، لأن لا قوة لي الآن في خوض المجازر من أجل سيجارة، فزوجتي تنهرني دائماً واضعة الكمامة البيضاء على أنفها وفمها، تشعرني بأن رائحتها وباءً ينتقل بِعدوى الشمّ، إلى أن سئمت من تلك المواجهة اليومية بينهما مما أفقدني الرغبة في المحاربة.

قمت بإنعاش جوّالي العجوز وإعادة تشغيله، وإذ برسالة واردة منه تخبرني بأن بطاقة ذاكرة الهاتف ممتلئة وعليّ أن أحسم الأمر بحذف المستندات الغير لازمة منه، باتت هذه الرسالة من الرسائل المزعجة منذ أسابيع، فالجوال لن يقوم على حفظ المزيد من الصور التي أستعملها من أجل صفحتي الأدبية على الفيس بوك، وسيكون بطيئاً في استخدام البرامج المحملة عليه ولا خيار سوى أن يُنازع في يدي معلناً اقتراب أجله وأنا غير مستعد حالياً لطلب دبوس واحد من زوجتي فكيف أقول لها أني بحاجة لهاتفٍ جديد؟!.

كأنه أراد أن يثبت لي أنه ما يزال قوياً حيث أخذ رنين الإشعارات يتوالى صارخاً بصوتٍ مسموع، فقمت على جعله في وضعية الصامت، عليه أن يكون مثل صاحبه تماماً فحالياً غير مستعد لتلقي المزيد من الشتائم في مرمى أعصابي المهترئة.

أخذ العجوز يُدلي لي تباعاً بأخبار الصفحة ومافيها من جديد بخصوص تفاعل المتابعين لآخر منشور كتبته فيها صباح اليوم الماضي، والذي جاء فيه:

سيأتي يوماً ويتحول الحزن إلى مستحاثة لا قيمة لها

وسيمّر الزمن بجانبه مرور الكرام دون أن يلقِ عليه السلام

أو حتى ابتسامة خاطفة لا تأخذ سوى جزيئات من الذكرى لن تكون من نصيبه....

فلا داعي لضياع الوقت في إلقاء ما يتم إلقائه

هناك دائماً أشياء أهم من ذلك ....

أشياء نشعر أن الإحتفاظ بها ثروة مهما كانت بسيطة عندما نفقد كل ما نملك ...

ولأنّ معظمنا يتمسك بآخر شيء بحوزته

بعد أن يكون قد قام في بادئ الأمر بهدر الكثير من التنازلات للمحافظة على العلاقات المحيطة حوله

يشح بعد تراكم الخيبات على مَن يستحق التضحية

أو يكون حذرًا من التورط مجدداً كي لا يخسر ما بقي لديه

ويعلن إفلاس مشاعره في عالمٍ تملكه المادة ......!!

مئة وسبعة عشر إعجابًا على المنشور... لا بأس به، وَعشرون تعليق أحدها لمتابعة قديمة اسمها جلنار، لا يخلو منشوراً من التعقيب بحروفها أما اليوم فقد اختارت أن تضع قلباً أحمر مشروخ إلى نصفين وكتبت بعده:

"الأيام آتية بينما العمر يمضي...

ولا بدّ من زمنٍ يلتقي فيه أحدنا بالآخر

فالمشاعر أضخم ثروة على وجه الأرض."

جلنار يا زهر الرمان ماذا تخفين ورائك؟

قلبي يخبرني أن هنالك قصة ثقيلة لَوَت قلبها، وتود لو ترتاح منها هنا... لقد مضى على صداقتنا خمسة سنوات، وماتزال هي الشخص الوحيد التَي أفرغُ همي وآلامي بمجرد الحديث معه، فهي

مستمعة جيدة وقادرة على بث التَفائل على مختلف الأصعدة وهي مَن تمدّني بالصبر لمواصلة العيش في هذا الإغتراب، لكنها إمرأة صامتة لا ترغب بالحديث عن نفسها وأنا لم أستطيع طوال تلك المدة أن أعرف عنها سوى القليل جداً عن طريق اكتشاف بعض المعاني من بين حروفها....

عرفت جلنار بعد فترة من نزوحنا أنا وجوليا إلى لبنان، خمسة سنوات بل أكثر نتواصل بكتابة الرسائل فقط حتى أني لم أسمع صوتها ولم أرى صورتها....

هي كالوطن تماماً نسكنه في الأحلام.

جلنار متابعة متميزة للصفحة لا يخلو منشوراً من عبق الإعجاب وعطر الكلمات التي تقوم بتعليقها على أغصان الخواطر التي أنشرها لتجعلها محطة أستنشق نسيم حروفها وما وراء المنحنيات من معاني!

أعترف أني أختلس النظر كل ليلة إلى صفحتها الشخصية لأعومْ بين سطورها، أغوص هنا وأَطفو هناك بلا طوق نجاة.... أسبح حد الثمل لأنام بعدها على لحن نبض حروفها لأغرق وأغرق، لا أريد أن أصحو أبداً من هذا السحر السرمدي الذي عرف طريقه

إليّ... حتى أصبت بالإدمان ولا شيء يوصلني إلى نشوة السلام سوى قراءة حروفها....

صفحتها مليئة بالخواطر والمقتبسات الجميلة تدعوني أدخلها دون حماية وقلبي ينبض بشدة مثل قرع الطبول التي تضرب مارش عسكري استعدادًا لاستقبال الشهيد...

وقد كان آخر ما كتبته على حائط صفحتها:

"ليتني أترك قلبي بين كفيك

ليشعر بالدفء في لياليهِ الباردة

ليتني أتركه بين كفيك

يستمتع بعطرك ويغتسل بطهرك

ليته يستطيع أن يعيش بين أضلاعك

خيرٌ له من البقاء في صدري."

جلنار يا زهر الرمان أشعر بأنك قريبة جداً، أسمع أنفاسي تهمس في روحك تنادي...

وهل لي بحق اللجوء الروحي إلى قلبك

ليمنحني جواز مرور أسافر به داخل وريدك

فأعيش في وطنٍ يملئه الدفء والأمان.

أتى إشعار جديد من صندوق رسائل صفحة لقلبك الفرح يؤكد بوصول رسالة إلى الصفحة....

من سيكون في هذه اللحظة المتأخرة ؟

إنها جلنار... !

كم هو رائع أن يحصل المرء على ما يتمناه دون طلبٍ أو رجاء

أن يجد ما يسعده أمامه وبين يديه

دون أن تقوم عقارب الزمن بلدغ أمنيته.

2

الحرية فيما نفعل

لا فيما نقول

مَن سيكون في هذه اللحظة المتأخرة ؟

إنـها جلنار بالتأكيد...

غالبًا أكون بحاجة للحديث إليها وتكون هي رهنًا لحاجتي، تعرف دائمًا متى تظهر لتقرأ ما في قلبي دون كلمات....

هل هذا هو التخاطر الذي قرأت عنه ذات صدفة؟!

أن أفكرّ بشخص هو ذاته يفكر بيّ في ذات اللحظة!

أن أملك المقدرة على التواصل مع الأشخاص ونقل ما أشعر به دون الحاجة إلى الحمام الزاجل أو ساعي البريد لتصل الرسالة له أو دون القيام على ضغط مفاتيح الكيبورد!

أيمكن أن أملك قدرات غير طبيعية وأنا الأبلة لا أعلم بها أولا أقوم باستغلالها؟!

سافرت ذاكرتي إلى عدة أحداث جرت معي ولم أعرها الأهمية مطلقًا....

واحدة منها كانت في حفلة تخرج ابنة مدير جوليا في العمل، كان قد مضى عام واحد على نزوحنا إلى بيروت حيث دعانا مدير جوليا إلى حضور حفلة تخرّج ابنته في الجامعة الأمريكية.... ذهبنا إلى الحفل أنا وجوليا وعند مدخل الصالة التقينا المدير مع زوجته مرحبّين بنا، دخلنا الصالة لنأخذ مقاعدنا ثم جلسنا في انتظار بدء الحفلة.

خرج الطلاب إِلى المسرح في الموعد المحدد مُتأخذين وضعية للوقوف عليه بحيث تظهر وجوههم على الحضور المتواجدين أمامهم، كان عددهم حوالي المئة حسب تصريح مقدّم الحفل نصفهم تقريباً ذكور والنصف الآخر إناث، اصطف الجميع بجانب بعضهم البعض على صفين بشكل هلال الصف الخلفي شباب أما الأمامي فكان للآنسات.

سألت جوليا آنذاك: هل تعرفين ابنة المدير من بين المجموعة؟ أجابتني بالنفي وقالت أنه هناك صورة للعائلة على طاولة مكتب مديرها، لكنّها لم تقترب منها كفاية لتميزّ ملامح الوجوه بوضوح.

قلت لها: حسناً، دعينا نقوم باكتشافها بين زميلاتها

ردت عليّ: أَأنت مجنون؟! هل تتكلم بجدّية ! إنهم مِئة، قل لي كيف ستعرفها من بينهم؟

أجبتها حينها: بل حوالي الخمسين، سأقوم باستبعاد الذكور أولاً وأضع كامل تركيزي في الإناث....

ضحكت جوليا بهدوء وقتها وهي تضع يدها على فمها ثمّ قالت:

آه منك أيها الماكر. تعرف جيداً من أين تُؤكل الكتف، لطالما كنت ذاك الرجل المحنّك الذي له خبرة في معالجة أمور الحياة، وقادر على فهم الواقع وتحديد أهدافه... تريد أن تفصفصَ المتخرجات واحدة واحدة وأنت تملك حجةً مقنعة لذلك كي لا أزعجك بغيرتي.

وتابعت: حسناً يا شَان سوف أتركك تقوم على تخمين من هي ابنة المدير لكنّ بشرط واحد.

قاطعتها بثقة: لن أخمّن يا عزيزتي، سوف أدلّك عليها خلال دقائق.

لكنها أصرت بإخباري قائلة:

إن لم تتعرف إليها يا شان سوف أقتني هرًّا صغير كما أرغب وسوف تعتني به أنت في غيابي.

بالرغم من معارضتي لتربية جميع أصناف الحيوانات في المنزل إلا أني وافقت حينها لثقتي بالنتيجة.... وبالمقابل إغتنمتُ الفرصة لأَحصل على ما أريد قائلاً لها:

سوف أسمح لك بإقتناء قط يا جوليا وأعدك أن أعتني به من أجلك لكن إن تعرفت إلى ابنة المدير وربحت الرهان سوف أطلب منك أن تشتري لي حاسوباً...

أومأت رأسها بهزة خفيفة دلت على الموافقة على طلبي.

في الحياة قد تكون الفرصة نافذةً تطلّ منها على العالم الخارجي.

وافقت جوليا على الرهان فكلانا يجزم بأنه الفائز...

ألقيت نظرة سريعة على المدير وزوجته، ثم رحت أُطابقها على بعد ثلاثين متراً وأكثر على الفتيات واحدة تلو الأخرى من رأسها

إلى أخمص قدميها وهنّ يقمنَ بجولة استعراضية على المسرح برفقة الشباب... ما إن انتهوا حتى عادت كل آنسة إلى مكانها السابق، ثمّ صعد عميد الجامعة إلى المنصة ليلقي كلمته عن ختام المرحلة الجامعية....

استدرت ناحية جوليا قائلاً لها بصوت منخفض:

أترين تلك الفتاة النحيلة ذات البشرة الحنطية، شعرها كستنائي اللون منهدلاً على أكتافها وترتدي تحت بدلة التخرج فستاناً أبيض اللون يصل إلى الركبة.

سألتني بحماس: قل لي أين تقف بالتحديد؟

أخبرتها أنها رابع فتاة من جهة اليمين، هي ابنة المدير

ردت عليّ جوليا قائلة:

سنرى إن كنت على صواب يا صاحب الفراسة.

بعد انتهاء الحفل الفني أخذت مقدمة الحفل تطلق اسماً تلو الاسم بالصيغة الثلاثية فيتقدّم صاحب الاسم لتحط عليه الأضواء ويستلم وثيقة التخرج خاصته، وبعد أن تسلّم ثلثي الخرّيجين وَثائقهم انطلق اسم مؤنث مقترن باسم المدير ونسبته فوقف المدير

وزوجته ينتظران صعود ابنتهما إلى المنصة ولمعة الفرحة تُضيئ من عيونهما....

لم أصدق لوهلة أنها هي نفسها من أشرت عليها الفتاة النحيلة ذات الفستان الأبيض! صعدت المنصة وتسلمت وثيقتها ووالديها يصفقان لها بحرارة وأنا واقفٌ بجمود بلا أية حركة، وكزتني جوليا بساعدها هامسة: صفّق صفّق ما بك يا رجل ماذا أصابك؟ إنها صدفة يا عزيزي لا تهتم لها.

أقنعت نفسي حينها أن فوزي بالرهان لم يكن إلا محضُ صدفة حتى لا أدخل سراديب مظلمة وأنا خالي الوِفاق من أية نور يرشدني إلى الطريق الصحيح.

بعد أسبوع أتت جوليا بقط أبيض ناصع كالثلج شعره طويل ذو وجهٍ أفطس من سلالة الشيرازي ولم يأتي الحاسوب، كأنها كانت تخبرني أنها تستطيع أن تحقق رغباتها دون الحاجة إلى رهان... بعد شهرٍ يليه اشترت لي حاسوبًا شعرت حينها أنها تُكافئني على جهودي في الصبر عليها وعلى قِطها أو ثمناً لما أبذله من عناء للمحافظة على البريستيج الجديد بين مجتمعها بامتلاك قط ذو ماركة، وليس لأني ربحت الرهان آنذاك... لا بأس في ذلك فالمهم

أصبح لديّ ما يُعينَني في القراءة الإلكترونية وممارسة هوايتي الجديدة في التأليف والكتابة.

وهناك حادثةٍ أخرى جعلتني أرجع إليها عندما كنت بحاجة ماسّة لأجري إتصالًا هامًا إلى أهلي في حلب كي أطمئن عليهم فقد كانت شبكة الأنترنت مقطوعة عندهم من فترة شهرين مضى ولم أكن أملك المال الكافي لتعبئة الرصيد، رحت أذّم شركة الإتصالات في نفسي قائلًا: مثل تلك الشركة عليها أن توزع دقائق مجانية دولية إلى مشتركيها فهي تحصد ملايين الليرات كل شهر، لا ضَير إن زرعت بضعة منها هنا وهناك.... وإذ بعد خمسة دقائق لا أكثر تصلني رسالة نصيّة من شركة الإتصالات فحواها أنها قدّمت لي هدية عبارة عن ساعة كاملة من الإتصال الدولي، وتنتهي صلاحيتها عند منتصف الليل، رحت وقتها على الفور اتصلت مع أهلي وبقيت ساعة كاملة أتحدث معهم.

ناهيك على أنّي أرى أحلاماً تتحقق بعد أيام من رؤيتها، إلى أن أُصبت بهوس تفسير الأحلام فأصبحت كلما أرى حلمًا أهرول إلى تطبيق جوجل لأعرف تفسيره، فإذ هي فعلًا تتحقق ولوبعد حين كما رأيت حتى بتُّ أخشى أحلامي، فأدعو كل ليلة أن لا أرى شيئًا لأهنئ بنومٍ متواصل وأحرر نفسي من إنتظار حصولها.

أتساءل ما تفسير مثل تلك الحوادث التي تجري معي؟ الصدفة تكون لمرة واحدة أو إثنتان ولا تتكرر دائمًا!

أهي البصيرة أو الفطنة تلك القوة الخفية أو الموهبة التي ملكها الله للإنسان لإدراك حقائق الأشياء وَالجوانب المخفية من الموضوعات أم هو التخاطر!

التخاطر الذي تعدّدت فيه التفسيرات العلمية فمنها ما وصفه بقوة خارقة وفوق الطبيعة ومنها ما عزاه إلى قوة التركيز العميقة، وهناك من حدده بأنه وليد الصدفة لا أكثر.

لكن ما الذي يجعل جلنار تُراسلني في مثل هذا الوقت؟ أَيمكن أن يكون وصلها منّي الذبذبات الروحانية عبر التخاطر!

ومن هي جلنار لتكون جاهزة لإستقبال البث؟!

مؤكد أن خمسة سنوات كافية لإقامة إتصال روحي بيننا.

أجمل الرسائل هي التي تأتيك دون موعد

لتُنقذ الفرحة التي بداخلك بعد محاولات إغتيال فاشلة

من حزنٍ خطط لتلك الجريمة!

فالانتظار يجعل من الساعات المّارة مراقبين أشاوس

يقتصر عملهم على تجريد الدقائق بالتفتيش المتقن

من أي خبرٍ سار يحاول عبور بوابة الأحلام.

لن أدع للانتظار يستولي على دقائق أخرى تهمني، قمت بفتح صندوق الرسائل لأبدأ معها الحديث فالشوق أكل من الوقت حتى شبع، وكان أول ما قرأته من الرسالة:

كيف حالك يا صديقي؟

كتبت على الفور قائلًا لها:

مستعد لأن أقطع القارات حتى أحصل على لقائك

أشكرك على وجودك معي

لكنك تحبسين لقائنا وراء شاشة حدودها كف اليد!

أجابتني كاتبة:

"على المسافات أن تعتذر عندما لا يصلنا ما ننتظره."

كتبت لها: مغمورٌ أنا بك رغم المسافات ولا قيمة للوقت بدونك

أتمنى أن أخرج بك خارج حدود الكون ولا أمنية لي سوى أن نسير بذات الإتجاه.

فأجابت: "كلانا يدور في ذات الفضاء

من يدري! علّنا نلتقي في كسوفٍ ما."

سألتها بحماس: متى يا جلنار؟ متى!

خمسة سنوات تظهرين فيها كل بضعة أيام ليلاً نتحادث قليلاً ثمّ تختفين فجأة، أخشى أن تكوني مجرد امرأة تعيشين في أَوهامي فقط ولا وجود لك في الحقيقة....!

دائمًا مهددًا بالغياب.....

أدفع ما بقي من عمري فدية مقابل تحرركِ

من ذاك العملاق الأزرق الذي يدعى مسنجر

لألقاكِ فيها لحظات وبعدها فلترحلي لو شئتِ

إن خاب نبض قلبك برؤيتي....

أرسلت لي أغنية (أنا الحلم) لوائل جسار، وطلبت مني سماعها... كتبت لها:

أنت مثل عادتك عندما تريدين الهروب تضعين لي رابط أغنية وتغيبين بعدها لأيَام!

على كلمات الأغنية عدت إلى الليلة التي شهدت على أول محادثة بيننا بالرغم من مضي الزمن عليها، كنت ليلتها أزور صفحتها الشخصية للمرة الأولى بناءً على تعليق منها على صفحة لقلبك الفرح شدنّي للقيام لزيارتها.... كانت قد كتبت

"تنتهي أشياء لتبدأ أشياء أخرى

وما بين النهاية والبدَاية تتسع

رؤى أبجديتك في قلبي

كأنك ختام البداية وبدء الختام."

كان الوقت متأخراً أيضًا حين أتى إشعار بوصول رسالة إلى الصفحة، وإذ كانت هي بادئة بأول جملة كتبتها فتحت باب المحادثة بيننا:

"الخطوة الأولى تخبرنا دائمًا أن هناك بداية جديدة...."

سألتها: مساء الخير أم صباح الخير؟

ردت: الزمن لا يهم.

أجبتها: إذن صباح الخير لتكون بداية لنا.

يسعد صباحك جلنار، أهو اسمك الحقيقي أم الوهمي ؟

ردت عليّ: ناديني ما شئت فَالأسماء لا تهم

كتبت لها: إذن هناك شيئًا أهم!

ردت عليّ وقتها: في عالم الفيس بوك تختفي الأشكال والأسماء لتتضح الملامح الفكرية والنفسية...

في عالم الفيس بوك المزدحم ليس مطلوباً مّنا الإِهتمام بكثرة الأصدقاء والمتابعين، فقط يكفي أن نحترم أرواحنا ونقدمها على حقيقتها دون كذب أو تزييف.

في هذا العالم قد نعيش بأسماء مستعارة ومشاعر حقيقية أما في عالمنا الحقيقي فنعيش بأسماء حقيقية ومشاعر مستعارة.

هو عالم كبير للبعض الذين قذف بهم القدر على الهامش لأسباب تتعلق بظروفهم وطبيعتهم.....

ثم تابعت تطلب: هل بإمكاني أن أسألك سؤالًا؟

أجبتها: بالطبع، تفضلي....

سألتني: لمن تكتب؟

أجبتها: أكتب لها، للشمس للأَرض للسماء للأحلام للآمال

ولكل أنثى لا يكتبْ لها أحد.

طلبت مني أن تكون واحدة منهن، ثم كتبت قائلة:

أرى نفسي مسجونة بين سطورك

في كل خاطرة أقرأها منك.

قلت لها: هي لكِ ما دمتِ ترين نفسك فيها

فالكلمات تعرف تماماً أين وجهتها وعلى مَن تستقر...

سألتني بعدها: هل تقبل أن نكون أصدقاء، فأنا بحاجة إلى صديق،

وأنت هو مَن قرأت عليه عنوان الصداقة.

حينها سألتها: ماذا تريدين بالضبط من تلك الصداقة، جلنار؟!

ردت عليّ: بما أنك أجبتني على سؤالي بسؤال فَسأقوم بتغيير صيغة السؤال.... أتأمنْ بالصداقة بين الرجل والمرأة ؟

أجبتها: الصداقة بمفهومها العام استحقاق على المرء أن يسعى إليه بكل محبة وصدق وإخلاص، فهي تفاعل روحي بامتياز وحوار عقلاني متزّن تُدخل الإنسان في علاقة متينة ووثيقة مع مرآته الحقيقية فكما أقول دائماً:

لا حاجة لك إلى مرآة مادام أمامك صديق صادق...

فالصّديق هو من يدلّ صديقه على ذاته، يبحث فيه عن جماله الحقيقيّ ويصحح له هفواته وأخطائه، لأنّه يريد له الخير.

هو كالملاك الحارس لا يتوانَى عن رعايته بصمت ومحبّة دون أن يفرض نفسه.

علقت على كلامي يومها:

أنا معك في مفهوم الصداقة بشكل عام، لكن ماذا عن الصداقة بين الرجل والمرأة..؟!

كتبت لها: لطالما تساءلت مع نفسي أيضاً ما إذا ما كانت الصّداقة متاحة بين الرّجل والمرأة، وإذا ما كان بالإمكان أن تبقى على مستوى هذه العلاقة المتّزنة، أم انّها قد تتحوّل إلى حبّ مع مرور

الوقت... فكلمة الصداقة بحد ذاتها فخ إن لم يقع فيه الطرفين سوية لا بد أن يقع أحدهما.

كتبت لي سائلة: وهل وقعت أنت في الفخ ؟

أجبتها: الوقوع في الفخ لا يمنع من مواصلة المسير على نفس الطريق بتغيير بسيط في الخطى للوصول إلى الهدف

يجب أن نتقبل السقوط على أنه أضاف لنا تجربة في الحياة

وليس فشلاً ذريعاً نقطع الرحلة من أجله... لأننا نكتسب الخبرات من التجارب التي نقوم بها.

وحسب تجربتي الشخصية من الصعب جداً بناء صداقة حقيقية بين الجنسين، بسبب الاختلاف في طريقة التفكير وتقييم الأمور....

ففي حين أن المرأة تحلل تصرفات الرجل وتقرّبه منها على أنه مجرد اهتمام صادق وبريء، فإن الأخير قد يفسّر اهتمام المرأة على أنه انجذاب جنسي نحوه، أو العكس ....

فبالتالي من غير الممكن التحدث عن صداقة عذرية في ظل وجود مشاعر وَرغبات جنسية مكبوتة.....

وقد يكون هذا الكلام غير صائب إلى أن يتم إثبات صحة مفهومه الخاص في إِيطاره العام معاً.

تبقى الصداقة العلاقة الأسمى بين مختلف العلاقات الإجتماعية

وإن تباعد الصّديقان بحكم جغرافيّة الزّمان والمكان

تبقى الصداقة بينهما متينة مهما واجهتها تبدلاتٍ أو تحولات.

وتبقى المحبة بين الأصدقاء مختلفة تماماً عن أنواع الحب الأخرى، حيث لا يوجد أي مصالح مادية بينهم أو مفاوضات أوتنازلات... وَحده الدعاء بالخير والسعادة يجمع فيما بينهم.

أجابتني: أوافقك الرأي فَالصداقة من أسمى أنواع العلاقات وأروعها من لا تحكمها المصالح والتي تقوم على المحبة والتسامح فالأولى سرعان ماتنهار بينما الثانية أصدق وأبقى لأنها بلا مقابل... إذن!

دعنا نكون أصدقاء نضحك معاً ونتألم معاً

ودعنا لا نختلف على من يحب الآخر أكثر

فلديّ حل.... سأرتدي أنا همومك

وأنت إختار من سطوري الفرح

لتخبئهُ في قلبك وتعزف من نبض الحروف لحن الورود

فأنت رغيف الحرف الذي إذا تناولته بنظرةٍ منك

تدفق سيلاً من الأهازيج راقصت أحزاني طربا.

وحينها دون تردد بعثت لها رسالة من حسابي الخاص الذي أدير منه صفحة لقلبك الفرح.... كتبت فيها:

هناك حروف تصبح جُمل

وهناك حروف تصنع الأمل

وأخرى حروف محفورة بالقلوب

وهنالك حروف لا تفارق العقول

إلا حروف اسمك عندما أكتبها

تتحول إلى عطراً يملأ هوائي أريجاً لا يُقاوم.

لطالما رغبت في المحافظة على شخصية الكاتب الغامضة لمدة لا بأس بها ثمّ تأتي جلنار تكشف عنها كل شيء خلال بضعة كلمات!

في تلك الليلة غابت عنّا ثلاثة ساعات نتحدث مع بعضنا، هي تسأل وأنا أُجيب كأني في جلسة تحقيق نظيفة لا تعذيب فيها....

عرفت خلالها اسمي الحقيقي شاهين وليس شَان كما تناديني جوليا إذ أرى أنه يصلح لاسم كلبٍ أو قرد، وعرفت أيضاً تاريخ ميلادي جنسيتي طولي وزني عطري الذي أستخدمه اسم ماركة السجائر كم مرة أحببت في حياتي ما نوع الأفلام التي أحب أن أتابعها من هو المطرب المفضل الذي أسمع له؟ كيف أقضي وقتي في تلك المدينة....

أشياء وأشياء كثيرة زوجتي جوليا لا تعرف معظمها حتى ذكرياتي سألتني عنها! أغرقتني أسئلة لم أسألها لنفسي من قبل فكنت مع كل جواب أتعرف إلى نفسي وأتفاجئ من هول ما هي عليه!

كان متضحاَ أن هنالك سرّ ما دعاني أسترسل في الرد على أسئلتها بعفوية، كمن كان في جلسة من التنويم المغناطيسي ودخل في حالة ذهنية هادئة ومسترخية يستقبل في اللاوعي الإيحاءات ويستجيب لها بكل سهولة، استطاعت جلنار أن تدخل العقل الباطن من بابه الواسع وتنال ما تريد على طبقٍ من ذهب....

فمهما بلغ الصمت مبتغاه لا بد أن يأتي يوم ويفيض بالكلام.

بينما أنا لم أعد من وقتها أسألها أية سؤال فقد أحسست من ردّها لسؤالي الأول عن اسمها أنها غير مستعدة للإفصاح عن أي معلومة شخصية تخصها، قائلاً لها:

أريدك أن تعلمي أني لن أسألك عن أي شيئ، سوف أترك لك حرية الكلام في الوقت الذي يناسبك؛ فأجابت وقتها:

الحرية فيما نفعل لا فيما نقول

فَالأفعال وحدها قادرة على ترجمة ما في داخلنا

من عواطف وأحاسيس أما الأقوال مثل الألعابِ النارية

مهما بلغت من روعة ستنطفئ لتذوب في كبد السماء

الحرية مسؤولية لذلك نهرب منها.....

لن تكون حرًا كما ينبغي إلا عندما تكون وحيدًا.

لم نشعر حينها إلا والساعة على الخامسة والنصف صباحاً، وقد غلبني النعاس والتعب وإذ برسالة تصل منها كتبت فيها:

لقد داهمني النعاس يا صديقي، آمل أن نبقى على اتصال فقد سررت بالمحادثة معك.

سألتها: متى سَنتحادث مجدداً؟

أجابتني: دعها للأشواق ....اعتني بنفسك جيداً، إلى اللقاء.

ثمّ أرسلت لي عربون تعارفنا رابط الأغنية الأولى (ما حدا بيعبي مطرحك بقلبي) للمطربة ماجدة الرومي.

انعزلت وقتها بكلمات الأغنية ورحتُ أسمعها عشرات المرات لأَختزل منها المغزى المقصود من إرسال تلك الأغنية فخرجت منها بتلك الجملة:

هناك شخصٌ واحد فقط على هذا الكوكب

بإمكانه أن يكون لك وطناً بكل ما تحمله الأوطانُ من معنى.

فرحتَ كاتباً في الصفحة........

كنتَ دائماً أترك مسافة كافية تقيني التواصل مع الغرباء

إلا أنها عرفت كيف تفك شيفرة إختراق الروح

فتسللت إلى الأعماق بهدوء واستقرت في القاع

وأخذت تمشي بداخلي على أطراف همسها دون إستئذان.

جلنار! جلنار جعلت عندي عدد المتابعين في الصفحة بين ليلةٍ وضحاها سيان إن زادوا أو نقصوا، فجلّ ما يهمني منهم هي فقط.....

هي المنقذ من تلك الفوضى التي تسحقني، معها شعرت بأني إنسان مختلف بل شعرت بأن نفسي عادت إليّ بعد خصام طويل بسبب النزاعات اليومية التي كانت تخرج منها مكسورة الخاطر.

أعيش وحيداً منذ نزوحنا إلى بيروت، فزوجتي مشغولة عني دائماً لا شيئ يجمعنا سوى ذاك السقف، حتى فراشي هجرته أو بالأحرى جوليا لم تعد ترغب بمشاركتي الفراش لأسباب واهية قامت على اختراعها...

فمن اللحظة الأولى التي استأجرنا فيها منزلاً مؤلفاً من غرفتين وصالة قامت بتجهيز غرفتيّ نوم منفصلتين، لقد تهيأ لي أن الغرفة الثانية للضيوف القادمة من السفر وإذ هي أصبحت من نصيبي، حاولت مراراً أن أقتحم غرفة جوليا لأنام بجانبها فلم يكن سوى الصراخ والشتم ما أحصل عليه في كل مرّة...

لذلك قررت بعد عدة محاولات بائسة أن أتخذ أسلوب قمع غرائزي العاطفية والجنسية منهجاً أحافظ عليه على ما تبقى من الكرامة الشخصية.

مهما كبر الحب بين اثنين يبقى رضيعاً كما وّلد

بحاجة إلى رعاية واهتمام متواصل وإن شاخ عليه الزمن.

لم أنم ليلتها جرّاء نوبة التفكير التي اعترتني ما بين جوليا وجلنار....

جوليا تلك المرأة التي أحمل لها فضلاً لن أنساه ما حييت، فهي من أنقذ قلبي من موتٍ عاطفي محتم بعدما كان محطماً من ضرب مطرقة الخذلان عليه مقرراً العزوف عن الزواج لأجلٍ غير مسمى إلى أن أتت وجمعت شظايا الحطام الذي كان قلبي عليه حاضنةً إياه بحنان الأم على ولدها عندما يقع سقيماً وَبرعاية الأب الذي يقدمها إلى ابنه بلا مقابل وحبّ الأخت لأخيها مهما لقت منه عنادً وكبرياء....

جوليا عادت بي إلى الحياة الطبيعية ماسحةً بعطفها كل الدموع التي غسلت خيبتي، لم تتركني لحظة منذ تعارفنا إلى أن أصبحت كل شيئ حولي...

سنة واحدة فقط ملكت الدنيا وما فيها ببساطتِها وتعقيدها بحلوها ومرّها... لم يكن يعنيني صعود الدولار ولا تغيير الوزارات ولا غلاء الأسعار أو البطالة، لأن جوليا بجانبي ومعي مهما اشتدت بنا المصاعب.

عندما تكون برفقة من يحبك تتحول آلامك إلى آمال

تُخبرك أن الحياة على هذا الكوكب ما تزال بخير.

فجأة! تغيرت دون سابق لأي سبب أو مشكلة، أصبحت عنيدة متمردة غير قابلة لأي جدال أو حوار متمسكة برأيها، غابت ابتسامتها ما وراء جبلٍ عالٍ من الغموض... كثيرة الشرود، فقيرة العواطف ثمّ بدأت بعد ذلك سلسلة الشتم والركل ترافقها الندم والإعتذار...

وكنت كلما أسألها عن سبب تغيرها يكون الرد عليّ بالصبر، فكما الزوجة مطالبة بالصبر على زوجها و أن تصون عهد الزواج بأن ترافقه بالسراء والضراء، كذلك الرجل أيضاً عليه بالصبر على زوجته وأن يحتويها ويراعي ظروفها.

سألتها مراراً: ما هي ظروفك التي جعلت منك قاسية إلى تلك الدرجة؟ ما الذي يخيفك من المصارحة؟ ألست زوجك الذي من المفروض أن لا تخفي عنه شيئاً!

فتجيبني: سيأتي وقت وتعرف كل شيء.

فحذرتها قائلًا: أريدك أن تعلمي أنه مهما كنت أملك لك مقداراً كبيراً من الحب فسوف لن يبقى صامداً كما تتوقعين في وجه زلازل مزاجك المتقلب، سينقص من حجمه رويداً رويدًا إلى أن يتلاشى ذائباً في مرارة هواك.

إلا أنها تزداد عنف وعصبية دون مبرر لأفعالها...

فكما قال لقمان الحكيم:

"عندما تكون على حق تستطيع أن تتحكم في أعصابك

أما إذا كنت مخطئاً فلن تجد غير الكلام الجارح

لتفرض رأيك به على من هم أمامك".

ومع كل هذه الأخلاق السيئة التي صاحبتها، لا تتردد عن الرجاء بأن أظلّ معها إلى آخر يوم من حياتها عندما أقوم بتهديدها في الرحيل والرجوع إلى بلدي مهما كانت الظروف هناك.

لكن مما لا شك فيه أنها إذا بقت على هذه الحال سيكون القرار حاسمًا في هذا الأمر ولا رجعة فيه، لأني حينها أكون قد استنزفت جميع أنواع الطاقة التي أملكها...

عندما تتقاذفك حجارة اليأس ممن تًحب

تبحث عمن يحبك ليكون لك درعاً يحميك منها.

فالحب المعجون بالذلّ لا يَستغيسهُ القلب

ولا تتقبلّه الروح مهما كانت رائحته شهيّة.

أما عن جلّنار زهر الرّمان فقد عرفت متى تأتي

متى الأرض تكون عطشى بحاجة إلى قطرة ماء

متى يكون الناجي من الغرق بحاجة إلى قُبلة الحياة

متى تهب الرياح لتشعل ناراً في الفؤاد

ومتى بإمكان الليالي أن تُمطر لقاءً يطفئ الحريق

لتنهي بذلك حرباً وتعلن حرباً أخرى......

استيقظت قريب الظهر من حلمٍ يراودني منذ سنوات بين مدة وأخرى، تظهر فيه جوليا مرتدية فستان الزفاف الأبيض، تقف

صامتة وهي تغيب في طريقٍ مجهول لا أعرف عنه شيئاً، بينما أنا جالسٌ أراقبها وهي ترحل محاولًا مناداتها بكل ما أُتيتُ من عَزمٍ، ولكنّي لا أستطيع أن أنطق حرفاً من اسمها!

أبحث عن القيود التي تمنعني من الجري خلفها كي أمنعها من الرحيل، لكني لا أرى أي قيدٍ يكبلّني سوى قدماي مربوطتان ببعضهما البعض، وشيئاً ما يعقد حبالي الصوتية ويخنق الكلام فيها.....

أصحو في كل مرة من ذاك الحلم مفزوعًا، وَصوتي أجش متأثرًا مما رأيت فأحاول أن أستعيده عبر مص حبة نعناع أَحتفظ الكثير منها داخل علبة معدنية وضعتها في الدرج بجانب السرير.

إنها الساعة الحادية عشرة والنصف، كانت جوليا قد غادرت المنزل إلى عملها....ومواء راموس لا يتوقف فهو بحاجة إلى الطعام في طبقهِ وتزويد نَافورته الصغيرة بِالمياه النظيفة، كذلك يجب تنظيف علبته البلاستيكية من الروث وَالقازورات...

تلك المهمات أُضيفت إلى مهامي اليومية، فقد أصبح راموس صديقي وأنا المسؤول عنه مع أنها هي مَن طلبت مجيئه لكنّها غير

مهتمة له أبداً فهي لا تقترب منه لتداعبه، ولا تسمح له بالاقتراب منها! ما ذنب ذاك الحيوان إن وقع إختيارها عليه؟

إن كنتَ غير قادراً على سقاية أصيص الورد

لا تشتمه إن لم يُزهر.

تناولت بيدي علبة سجائر جديدة من رف خزانة الملابس وخرجت بها إلى الشرفة بصحبة فنجان قهوة أحتسيها مع العجوز جوّالي...

وكالعادة أخذت علبة الدخان لأقرأ التنبيه الذي كُتِبَ عليها قبل أن أداعب لفافة التبغ بأصابعي...

(التدخين يؤدي إلى الشيخوخة والعجز المبكر.)

لا أدري لمَ يتكبدون عناء وضع الصور والعبارات على علب السجائر يطلبون فيها عدم التدخين من الناس، برأيي هذه أمر سخيف فإن أراد شخص أن يّدخن سيدخّن في كل الحالات...
سألت مستر جوجل كي لا أبقى على جاهلية من أمري فأتى الرد كالآتي:

إن قانون وزارة الصحة ينص على ذلك، ويفرض أن يكون أربعون في المائة من حجم العلبة مخصصاً للتحذيرات الصحية للمستهلكين المدخنين.

إذن هو مجرد قانون لا أكثر، ويجب على الشركات المصنّعة أن تطبقه غير مكترثة إن كان مفيداً للتوعية أو مؤثراً على الطبقة المدخنّة من البشرية لتقلع عنه.

هي تُنفّذ القانون فقط لدرء الغرامة المالية عنها، أو كي لا يتم إغلاقها والتكبد بالمزيد من الخسائر.

ألا يعلم القانون أنه بإمكاننا نحن البشر أن نتحايل عليه بطرق قانونية.!

ما دام للتدخين مضاراً أكثر من منافعه، لمَ لا يتفق دول العالم على كفّ البلاء ومحاربة ذاك المنتج من بداية زراعته إلى نهايته رماداً ودخان!

أرى أنّه لا فرق بين إنتاج السجائر وصناعة السلاح

فكلاهما يستغل الطاقة البشرية في قتل البشرية نفسها

بأساليب مختلفة مرخصة دولياً لجني أموالًا ملوثة بموتهم...

فالأولى تحصد أرواحاً عن طريق الأمراض

والثانية تحصدها عن طريق الحروب.

حبستُ تلك القاتلة الملعونة بين شفاهي، ثمّ رحتُ أرشفُ رائحة التبغ المخزّن فيها وأنفثهُ دخاناً.... جعلتها تحترق ببطء انتقامًا للجميع.

يا لحالي! أحياناً أشعر أني حيزَ الجنون بشعرةٍ واحدة من وراء فلسفتي المعتوهة.

مالي غير هذا العجوز أُخرج نفسي من تلك المعضلة، أمسكت به لأرى ما الجديد في صفحة لقلبك الفرح على آخر منشور كتبته....

النتيجة حتى الآن أحد وعشرين إعجاباً وخمسة تعليقات، أحدها لجلنار وقد كتبتْ...

"تعال وضع يدك في يدي واجعلني أعيشك

تعال نتسلل خلف حدود الزمان

لنكتب قصتنا على جدار الوقت

تعال أعيشك وننسى المدن والأيام

لَنطير على بساط الريح لعصرٍ آخر

نحقق فيه أمانينا معاً....تعال"

هذا ما أبحث عنه في الصباح... لقد أدمنت حروف تلك المرأة منذ أن تعارفنا، لن ينفع هذه المرة آلاف التحذيرات والتنبيهات كالتي أقرها على علبة السجائر من ردعي! بالرغم أنه لا أعرف إلا الشيء البسيط عنها!

هناك ترياق يمشي في الوريد يقضي على السموم

التي تقوم بِإجراعي إياها زوجتي المصون كل يوم....

ويسألون لمَ الرجال تنحرف؟! لمَ تُحلّق خارج السرب!

عزيزتي المرأة:

إن مقولة أقرب طريق إلى قلب الرجل معدته هي خاطئة خاطئة، هذه المعلومة المهترئة من أيام العصر الحجري قد ولّت، اندثرت وانقرضت....

يستطيع الرجل الآن أن يطبخ أشهى المأكولات وأصعبها بل وينافس بها طبخ أمهر النساء، والدليل على ذلك أفخم المطاعم

العالمية وأشهر العلامات التجارية للطعام هي من طبخ أيدي الرجال...

ولمَ أذهب بعيداً؟ ها أنا ذا أطبخ ما لذّ وطاب من المأكولات طالما قنوات اليوتيوب تُلبي ما نشتهي من أصناف الطعام.

عزيزتي المرأة:

أصبح الطريق الأسهل إلى قلب الرجل أذنه ثمّ أذنه

عندما تَمليئن أذنيه بشهدْ الكلمات والغزل المعسول

اعلمي أنك قد ملكت قلبه وعقله معاً....

الأمر أبسط مما تظنين

الرجل يريد أن يأكل أشهى الكلام

وأن يشرب قهوته محلاة بالابتسامة....

يريد أن ينسى قباحة الحروب وبشاعة الفقر

يريد أن ينسى أنه على قيد الموت.

دخلت صفحة لقلبك الفرح مجدداً وكتبت خاطرة الصباح:

وكيف للروح أن ترتاح وهي بعيدة عنك

وقد جعلتِ لدقات القلب معزوفة باسمك

كيف للروح أن تهيم تائهة حولي تسافر

دون معرفة طريقك...

فأنت شمعة القلب ونسمة العمر وكل التمني.

ثمّ أخذت أفتش عن رسالة علّه حملها لي نسيم توأم الروح الذي أتى الليلة الماضية لإنقاذي في اللحظة الأخيرة من الجفاف العاطفي الغارق فيه.... لا شيء مما توقعته! لا شيء سوى ذات التنبيه (بطاقة ذاكرة الهاتف ممتلئة الرجاء مسح البيانات الغير مستخدمة)

لا مزاج لي الآن للمسح، بل أريد أن أملأ ذاكرتي بالروح المنقذة، أريد أن أملأها بزهر الرمان جلنار، أريد أن أحتسي المزيد والمزيد منها... لطالما كان عصير الرمان المفضل عندي من كافة أنواع العصائر وأطيبها.

وكي يطيب صباحي أكثر فتحت المسنجر لأملأ كأسي بأحلى الكلام وإذ هو فارغ!! ولا وجود لأي محادثة بيننا، يا إلهي... لقد

مسحت المحادثة بأكملها كعادتي قبل النوم، ما الذي يجعلني أخاف من السعادة لأمحي أي أثرٍ موصول بيننا؟!

إنه القلق الذي يشنق داخلنا كل الأشياء الجميلة.

يا لي من معتوه! كيف أمسح مثل ذاك الندى الذي ينعش روحي في كل محادثة بأرق الكلمات.... كيف لي أن أحول هذا الشيء الجميل إلى خيال! لكني متأكد أنه حقيقة، لقد تَحادثنا مع بعض قرابة الساعة الثانية صباحاً بحثُ خلالها عن أشواقي لها بينما أنا لم أحظى سوى بروحها الحلوة التي لونت حياتي بألوان الربيع فأنستني حزني وهذا ما جعلني أعيش أروع اللحظات.

إلا أني أخاف أن تهرب مني بعدما اعتدتُ عليها، فالظلم الذي أعيشه مع زوجتي جعل مني رجلاً يخشى مواجهة اللحظات السعيدة.

السعادة حسب فلسفتي أحجية للغز واحد يقبل عدّة حلول

وكلٍ يعطي تفسيراً حسب ما يحتاجه في الحياة...

فالفقير يرى السعادة في المال وَالمريض يراها في الصحة

بينما الطفل يرى السعادة في لعبة والعجوز يراها في حلم يعود به إلى مرحلة الشباب....

بينما هي بالنسبة لي أشبه بكرة أركض ورائها

ما ألبث أن أقترب منها لتأتي زوجتي تسبقني وتركلها بعيداً عني

ثم أعود لأَركض خلفها من جديد

إلى أن أقع منهكاً من التعب خالي الوفاض

لا شيء معي سوى الألم على ما بذلته من مجهود.

وكما قال الكاتب أحمد خالد توفيق في ذلك:

" تبقى أهم طريقة لتجنب التعاسة هي ألا يكون لديك وقت فراغ تسأل فيه نفسك فيما إذا كنت سعيدًا أم لا."

وكي تكون أسعد الناس كما قال الإمام الشافعي رحمه الله

"إجعل الفرح شكرا...والحزن صبرا

والصمت تفكرًا... والنطق ذكرًا ...والحياة طاعة

وكن مثل الطائر، يأتيه رزقه كل صباح ومساء ولا يهتم بغد

لا تؤذي أحدًا ليكون قلبك كاللؤلؤ...ولا تحمل أحقادَا

كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل

صلِ صلاة مودّع وارقد كأنك شهيد

ولا تتكلم بكلام تعتذر منه...

ولا تنسى أن حسبنا الله ونعم الوكيل تطفئ الحريق

وينجو بها الغريق ويُعرف بها الطريق."

دخلت صفحة جلنار الشخصية علّني أحظى بشيءٍ يمدني بالقوة جراء إستنشاق شذى حروفها العطرة فشممتُ عبيرها من على السطور:

"يكفي أن يكون داخل كل منّا حفنة من الأمل النفيس

لنواصل بها الحياة

ذاك الكنز الدفين الذي تحرسه الروح بكل جوارحها

وهي تصارع اليأس لتعيش في سلام ."

قادتني أناملي شوقًا لأكتب لها رسالةً من حساب صفحة لقلبك الفرح تعقيبًا على مَنشورها:

هل تعلمين أني أحدثك بكلام لا أسمعه

أناديك بلا صوت وَأحتضنك بلا ذراعين وأجري للقائك بلا قدمين

وهل تعلمين أني أكتبك بغير قلم وأذكرك بغير حروف

هل تعلمين أيضاً أني أكتبك نبضاَ وأراك واقعاَ

كأن هناك شعاع من نور يجيد تَجسيدك أمامي مبتسمةً

فَتعيدين الروح إلى الجسد أيتها الأنيقة

أيقنت أخيراً أن قلبي يفعل كل هذا دون أن أدري

فقد ملكتِ شرودي وسيطرتِ على القلب والروح.

إشعار آخر يقطع موجة الحنين التي أركبها ليَقذفني بعيداً عنها، العجوز يلح بعملية تنظيف مستعجلة لأن بطاقة ذاكرة الهاتف متخمة ولم يعد لها طاقة للعمل.!

ويحك أيها العجوز! ما الذي في جوفك لتصرّ هذا الإصرار على لفظه خارجاً، ما الذي أتعبك بهذا القدر على حمله كي تستغيث كل لحظة للتخلص منه؟!

حسناً... سأرى ما الذي يشقيك كل هذا الشقاء، ما دمتُ قد حذفتُ محادثتي مع جلنار سهواً سأقوم بعمليات الحذف تلك عمداً... هاتي إذن ما عندك أيها العجوز.

رحتُ فاتحاً وحدة التخزين (الاستديو) لأرى ما يُضايق ذاك العجوز، بدأتُ بمجموعة الصور الشاملة من صور الكاميرا وتنزيلات الفيس بوك إلى صور البرامج التي أعمل بها من أجل الصفحة...أكثر من ألفيّ صورة قمت بإِقصائها وَمسحها من الجهاز، لم أكن أتوقع كل هذا الكم الهائل الذي كان يخزنه! بعضها قديم جدًّا يعود تاريخها من بداية نزوحنا إلى بيروت....

الصور الجميلة منها حفظتها على حسابي في جوجل درايف كي أحافظ عليها من النسيان أما المكررة والعادية منها رميتها في أيقونة صندوق القمامة.

حين أتصفح صوري القديمة وَالرسائل القديمة

أسافر بلا طوق نجاة إلى بحر الحنين....

حين أغمض عيناي عن كل الفضاء

وَأسد أذناي عن كل الأصوات

وأسبح في عالم آخر بتفاصيلٍ أخرى

فأنا مشرفٌ على الغرق في الحنين

وحين أصدق كل الأحلام وكل ما يخطّه الفنجان

وأراقب ما تقوله الأبراج، فلا بد أن أكون ميتًا من الحنين.

احترس يا صديقي من الحنين، فقد يرديك قتيلًا.

هربت من الحنين في آخر شوقٍ للعودة إلى اللحظات الجميلة، منتقلًا إلى مجموعة الفيديوهات التي تحتل حيزًا لا بأس به أيضًا، أغلبها للقط راموس في جميع مغامراته... فيديو وهو يلعب بكرة ورقية، آخر وهو جالس في الشرفة يراقب الطيور التي تزقزق أمامه مستمتعاً بألحانها ثمّ يليه فيديو وهو يقفز لمسك الحبل الذي ألاعبه به... هذا المخلوق الصغير راموس استدعاني لاستراحة شردتُ بها مع نفسي اعترفت لها أنه الصديق الوحيد الذي بقي بجانبي في غربتي ووحدتي، الوحيد الذي شغل وقت فراغي الطويل في تلك المرحلة التي لا أعرف متى ستنتهي!

بالرغم من معارضتي في بادئ الأمر لِتربية أي حيوان في منزل مغلق بإِستثناء أسماك الزينة، اعتنيتُ به كالطفل الصغير من طعام وشراب ونظافة... حتى أصبح لا يُفارقني في كل تحركاتي فارضاً حبيّ عليه إلى أن أصبحتُ أتحدث معه طوال الوقت، أشكو له هواني وقلة حيلتي فما يكون له سوى الرد على شكوى صديقه بمواءٍ يواسي به همّي.

تركتُ له بعض الفيديوهات المميزة وحذفت المتشابهة منها، أظن أن العجوز قد ارتاح الآن من تخمة التخزين... لكنّ مهلاً، كأنّه هناك الفيديو الذي قمت بتصويره ليلة الأمس، بل هو ذاته!

فتحته لأرى محصول شقائي الذي بذلته بالأمس، فما أذكره أني غفوت على الأريكة من شدة التعب في تحضير الحفلة ولا أدري ما فعله العجوز بغيابي... هل استمر في عمله؟ أم نام مثلي؟

أخذتُ سيجارةٍ أخرى بعدما قرأت التنبيه المكتوب على العلبة للمرة الثانية، ثمّ قذفتها إلى فوهة فمي لَألهو بها على حافة شفتاي دون إشعالها...

وها قد بدأ العرض... كان التصوير لا بأس به بالرغم من إضاءة خافتة لمصباح كهربائي موجود في الصالة يَرفقه ضوء لهب الشموع الخفيفة ، ومما زاده جمالاً الموسيقى الرائعة لمعزوفة

ضوء القمر لِبتهوفن، كنت منهكاً للغاية غفوت على الأريكة بعد بدء التصوير بدقائق لكنّ العجوز كان ما يزال على وضعية التصوير مرتكزاً على الوسادة التي كانت على بطني في لقطة ثابتة نحو الجهة المقابلة للأريكة التي كنت غافلاً عليها... قمت بتسريع اللقطة فوجدت أنه مضى ثلاثة دقائق على هذه الحالة، كدّت أوقف العرض وأمسح تلك الذكرى اللعينة نهائياً لو لا أني لاحظت شيئاً غريباً ظهر في الصورة!!

هُنَاك أَشيَاء فِي حَوزتِنا لَا نَدرِي مدى أهمِّيَّتهَا

أَهَميَّة الشَّيْء تَكمُن فِي الحاجة لَه.

3

انتبه....!

الذاكرة ترجع إلى الخلف

مهلاً، لقد لاحظت شيئاً غريباً ظهر في الصورة قبل اندلاع الحريق! شبح يتجوّل في الصالة ذو قوام يشبه جسد جوليا... بل هي! لكن ماذا تفعل؟!

ظننت من الوهلة الأولى أني رأيت مخلوقاً من وراء الطبيعة كالجنْ مثلاً أو شيئاً من الشعوذة التي نراها في عروض المهرجانات... فملامح الوجه غير واضحة بسبب الإضاءة الخافتة، والصورة لم تكن صافية بالقدر الكافي لكنّي استطعت أن أخمّن ما حصل.

كانت جوليا تتجول في الصالة لتقف في كل زاوية منها، كأنها تدقق فيما ترى أو تبحث عن شيء ما! ثمّ اقتربت منّي لمسافةٍ وجيزة، وقفت برهة تتمايل بجسدها نحوي، لم يظهر في الصورة ما الذي فَعتله بيّ بالتحديد! فالوجه غير ظاهر لأنها كانت قريبة

من عدسة الهاتف، كأنها تأملت شيئاً لا أدري ما هو؟ ربما كانت تريد التأكد بأني نائم... ثوانٍ ثم ابتعدت!

لقد ذهبتْ إلى الجهة المقابلة من الأريكة التي كنت غافلاً عليها لتفعل شيئاً من المستحيل تخمينه! لفترة من الذهول قمتُ بإعادة العرض أربعة مرّات لأتأكد ما حصل، وكنت في كل مرّة أُصاب بالدهشة لما شاهدت كأنها أول مرّة!

انفعلت مما رأيت شديد الإنفعال حيث قطعت لفافة التبغ بأسناني مقسمّاً إياها إرباً إرباً كقطعة لحم قاسية عندما أكون جائعاً، ثمّ وقفتُ أبصق طعمها المرير والقشعريرة غزت وجدانيّ بعنف غير آبهة لقلبي المسكين الذي أخذ يصرخ بأعلى نبضه.

بات الهواء يخنقني ويضغط على أضلاعي، يعصرني بقوة إلى أن وقعت ممدداً على أرضية الشرفة لتنهش حادثة الأمس ما تبقى من ذهولي.

جسدي بارد وفي أطرافي خِدرٌ كوخز الإبر، لم أصحو إلى أن امتلأ وجهي بلعاب راموس فقد كان يحاول إيقاظي عن طريق لعق وجنتاي بلسانه الخشن...

ركنتُ بجسدي إلى الحائط أبحث عن العجوز بجميع حواسي كمن يبحث عن ولده الضائع بحالة جنونية، وجدته بجانب أصيص ورود الكاردينيا مقسوماً إلى نصفين يُنازع ساعاته الأخيرة...

أخذته بأصابعي أتحسس حالته السيئة، أعدت تشغيله بَعدما أرجعت البطارية إلى أحشائه ثمّ انتظرت...

لم أكن لأصدق ما فعلته جوليا لولا ذاك العجوز المخلص، كم تذمرّت منه و نهرته على سوء عمله وبطء أدائه!...

كم من المرات انتابني الخجل حين أقوم بمقارنته مع باقي الجوّلات الحديثة التي يستخدمونها الناس المحيطين بيّ، حتى البوّاب المسؤول عن المبنى الذي نقطن فيه يملك جوّالاً ذكياً إصدار السنة الماضية!

وكي أتلافى نظراتهم الوضيعة لي كنت أضعه في جيب بنطالي عندما أكون خارج المنزل... لا أخرجه منه إلا للضرورات القصوى، أما الآن فهذا العجوز قيمته عندي توازي أحدث وأغلى الإصدارات في العالم.

ها قد عاد العجوز إلى عمله من جديد، وأول ما فعله أرسل إشعاراً بمتابعة عملية حذف الملفات الثقيلة! كأنه يخبرني أن هناك شيئاً محدداً عليّ أن أمسحه من ذاكرته، كأنه يقول لي:

انتبه، الذاكرة تعود إلى الخلف، والعودة إلى الخلف يلزمها الشجاعة لتعيش الحاضر كأن شيئًا لم يكن.

لن أقوم بما يرغب به العجوز الآن، ولو كلّفني عجزه إلى الأبدِ،

سوفَ أحرقُ بنهمٍ غير مسبقوقٍ ذكرى تلو الأُخرى...

النارُ تحصدُ أي شيءٍ أمامها عندَ الغضبِ، والشك يغلي داخل الصدرِ طالما القلبُ موقد لها والعقلُ رمادِ.

أمسكتُ علبة السجائر كلها دون أن أَعرها أي اهتمام للتنبيه المكتوب عليها وَأفرغت محتواها على الطاولة، ثمّ رحتُ فارداً السجائر بجانب بعضها البعض كصفٍ عسكري واقف دون حراك، مستعدًا لاستقبال الأوامر ثمّ تنفيذها بلا أي إعتراض...

كانت كل واحدةٍ منها تنادي لأَعود للوراء للحادثة الأقرب فالأبعد، كي أقوم بتحليل ما جرى معي بروية على كل ما مرّ

سابقاً دون تدقيق إلى أن أخذت الأحداث الماضية تتضح أثناء مرورها في كل محطة من قطار الذكريات.

تناولت اللفافة الأولى لأتطرَق إلى أقرب محطة ومواء راموس المتواصل يبعثر ما أجمعه من أحداث في صندوق الذكرى ليعود ويرميها بعيداً، ليثيرَ انتباهي إلى طبقه الفارغ من وجبته الصباحية....

آه، لقد نسيته في خضمّ ما أنا فيه من فوضى.

نعم، إنه راموس هذا الكائن الحيّ الموجود في المنزل! لمَ اشترطت جوليا على مجيئه في حال ربحت رهان معرفة ابنة المدير في حفلة التخرج؟ مع أني لم أراها يوماً تعتني به أو تداعبه!

لمَ تجعلني المسؤول عليه في كل أموره وأنا أنفر من تربية الحيوانات في المنزل ولا أحبذ وجودها فيه!

إنها تريد أن تشغل وَقتي في أمور لا أستسيغ القيام بها لتعاقبني على شيءٍ لم أفعله حتى لا أفكر في فعله فيما بعد!....

أنه الجزاء المقدم عاجلاً على فعل لم يحصل كي لا يحصل آجلاً! أشك أحياناً بأن هذه المرأة من سلالة هتلر النازي، الرجل الذي

دخل التاريخ من باب الاستبداد وَالعنف ففيها صفات كثيرة مستنسخة من ذاك الدكتاتور العنصري.

وقبل أن أبدأ بسيجارة جديدة نقلتُ ملف الفيديو إلى حسابي في جوجل درايف، أردت أن أحافظ عليه من نوبات الخَرف التي تصيب جوالي المُسن ثم أعدت تشغيل المقطع لأتابع ما في داخله للمرة السابعة على ما أعتقد.... لا يهم! المهم أن أجد تفسيراً لما يحويه.... ولم أجد!

عدتُ إلى الإعتكاف بذاكرتي مع لفافة تبغٍ أخرى ومحطةٍ مختلفة، دون أن أقرأ التنبيه المكتوب على العلبة الفارغة المرمية بجانب السجائر المصفوفة التي تنتظر دورها في الحرق فَفِص القراءة في الدماغ مشغول حالياً بقراءة الذاكرة المنسية.

أنا لا أنكر اهتمام جوليا بي قبل الزواج فقد أعاد في داخلي إضاءة المشاعر الإيجابية بعد أن كانت مطفأة لمرور وقت عصيب على روحي، لكن مالا أفهمه لمَ كل هذا التغيير الشاسع بعد الزواج بأشهر، والأغرب منه أني ضعيفٌ أمامها وغير قادر على مواجهة ما تفعله بي....

متردد في اتخاذ قراري وخائف من العودة إلى الوطن ترافقني ظلال الخيبة وأنا أجر ورائي ذيول الخذلان!

أصبحت معتاداً على تقلبات مزاجها المفاجئة، تسمعني الكلام المعسول ثمّ أبلع منها العلقم! كفصل الربيع يوم مشمس ويوم غائم ويوم ماطر، بل في يوم واحد يحصل هذا كله برْدٌ وشمسٌ ورعدٌ وريح.... مرات كثيرة قلت لها:

جوليا لم أعد أحتمل تصرفاتك الغريبة إما أن تذهبي لطبيب نفسي أو أنا راحلٌ بلا رجعة.

وما كان أن تفعله سوى البكاء أسفاً في كل مرة، والرجاء أملاً بأن أبقى جانبها قائلة لي:

لا تكن أنت والزمن عليّ... لا أريد البقاء وحيدة وأنا في هذا الظرف، سيأتي اليوم الذي تعرف كل شيء.

أسألها: ماذا عليّ أن أعرف؟

لا جواب، بل تتركني في حيرة وتدخل غرفتها.... وفي اليوم التالي تفاجئني بهدية تشتري بها صبري عليها.

في الواقع ليس هناك حياة زوجية مثالية، بل يوجد فيها نقطة مثالية هي في الحقيقة عقدة الزواج، وعلى الإثنين أن يعرفا أين تلك النقطة والمحاولة للوصول إليها، ثمّ حلّها من كلا الطرفين لتحقيق الموازنة بين ما يريداه وما يجب أن يكون.

عشرة سنوات مضت وأنا ألهث وراء حلّ تلك العقدة، أحسب أنها في كل مرة أني اقتربت من الحل لكن عبث... كل الجهود والحوارات المبذولة معها عبث....

لن تُحل عقدة زواجنا إذا استمرينا على ما هو عليه....

شكرًا جوليا.

ليست الحياة مَن ينال ثمن الدروس التي تُلقننا إياها، إنهم الذين يستغلون مجهود الحياة لينالوا منها ما يشاؤون دون مقابل.

كومةٌ من الشوكِ تقبع فوق حنجرتي، جعلت منها صخرة تدهس حبالي الصوتية.... أريد أن أعبّر عن غضبي بالصراخ لكن غالبًا ما يخونني صوتي، مهما حاولت معه كان الهمس آخر ما أحصل عليه!

إنه التدخين الشره الذي قام بِنقر حبالي الصوتية مثل طائر نقار الخشب، إلى أن جعلها بالية مهترئة من أضعف ثقل تنقطع فَيضعف صوتي معها...

إذن! أنا أعاقب نفسي بالتدخين! وعلى ماذا أعاقبها؟ على طيبتي وسذاجتي في هذا الحياة، بدلاً من الوقوف معها أقوم بسحقها وتحطيمها بِمطارق العلب الكرتونية، ثمّ أزجّ بها في سجنٍ قضبانه بضعة لفافات ورقية.

شكراً شاهين...

نحن نعاقب أنفسنا بالقيام بأعمال تضر الصحة الجسدية

مثل مريض السكري الذي عندما يغضب من نفسه

يقوم بمعاقبتها بتناول الحلويات.!

وقفت مستنداً على سور الشرفة وأنا أتأمل منظر البحر من بعيد، فالشمس تمتطي صهوة أمواجه من وراء السحب غير مبالية إن سقطت أشعتها في ظلمات قاعهِ أو وصلت بزهوٍ إلى الشاطئ....

هي تريد أن تقول للبحر: أنا هنا مهما حاولت أن تفعل سأبقى هنا، بينما هو يزمّجر لها متحديًا: وأنا هنا أيضًا لن أَستسلم.

استدرت نحو الوراء لأرى لفافات التبغ تسخر من ضعف إرادتي، فبالأمس كنت قد اتخذت قراراً بعدم تدخينها واليوم أفعل عكس ما نويت...

القرار فعل والفعل إرادة والإرادة قوة، والقوة نحن من يصنعها.

جمعتُ ما تبقى من لفافات السجائر، مقطعاً أفواهها من المنتصف لأتخلص من ثرثرتها واستهزائها بيّ، ثمّ دفنتها في القمامة لتقوم بَنِهر أفعالها الشنعاء.... ولم أنسى المَنافض أيضاً ملحقاً إياها إلى المقبرة.

قمت بتنظيف الشرفة من آثار جريمة الثأر، قاطعاً وعداً لنفسي بأن أكون عند حُسن ظنها بيّ... قذفت بحبة نعناع إلى فمي لأتخلص من بقايا طعم التبغ المقزز جالساً على كرسي البامبو المعلق بالسقف مع فنجان قهوة جديد برفقة الواشي طبعاً، أَلتقط السيلفي لأُعلنها بداية جديدة دون تدخين، نظرت إليه نظرة جدّية توحي له بأني رجلٌ حر أتخذ القرار الذي يناسبني في الزمن الذي أراه يلائم قراراتي.

ويا لها من صورة! لقد ظهرت فيها كالعصفور المسجون داخل قَفصه، وحولي العصافير تلاعب نَسيم الخريف بمرح لاهيةً بالجو

اللطيف.... وأنا الشاهين الذي يعشق التحليق حرًّا قابع وراء القضبان!

ذاك الكرسي الذي يشبه القفص بشكله أصرّت جوليا على شرائه ولم أراها يوماً تتأرجح فيه!

حذاري من صور السيلفي فإنها أكبر خدعة على وجه الأرض،

بحيث يظهر المرء فيها على حقيقةٍ هو يحاول إخفائها.

سافرت بذاكرتي محطات كثيرة إلى الخلف إلى أن وصلت إلى أهم محطة، محطة الحقيقة الخفيّة:

من أين عرفت هذه المرأة جوليا.؟!

الجواب: عرفتها من تلك الرحلة السياحية، كان جميع من في الرحلة من العائلات إلا أنا كنت وحيداً لا مرافق معي...

وهنا بدأت جوليا تتقرب مني باهتمامها ضمن إطار عملها، فكانت ترسل رسائل صباحية على الواتس عن موعد الإفطار مرفقة بصورة عن المائدة المفتوحة التي تحوي مختلف أنواع المأكولات التركية الشهية وعن البرنامج اليومي الذي ستقضيه الرحلة.

كانت تعد كل صباح طاولة لشخصين مزينة بالورود الطبيعية ذات إطلالة رائعة على مضيق البوسفور، ثمّ تدعوني للجلوس معها قائلة:

أتمنى أن تشاركني وجبة الإفطار فأنا لا أحب أن أتناول الطعام وحيدة، وجميعهم مشغول بعائلته وأولاده و لا أريد إزعاج أحد.

معروفٌ عني بطباعي السهلة ولا أرد أحد خائبًا إذا كنت أستطيع عمل ما يُطلب مني، وحينها لم أخيبُ أمَلها خجلًا من مجهودها الذي بذلته، فقمت على شكرها بلباقة وتلبية دعوتها...

تشاركنا الحديث والطعام لمدة أسبوع كامل، وتبادلنا الآراء حول أي موضوع كان يعترض حديثنا....

يا لي من أحمق! شتّان ما بين الأمس واليوم لا شيء يصلهما سوى ورقة عند كاتب العدل وشاهدين، كاختلاف الليل والنهار، لا شيء يجمعهما سوى كلمة منتصف.... منتصف الليل أو منتصف النهار، أما عن كلام الليل فيمحوهُ النهار، وأما عن الأمس فالأَمس مضى بلا رجعة، واليوم يصنع الأمس.

ما نعيشه اليوم يصبح أمساً والأمس بات ذكرى نعيشها اليوم.

وبينما أخذت الغيوم في التجمع معلنة عن بداية متوقعة غير معروف نهايتها! ومضت في ذاكرتي المحطة التي انطلق منها قطار الأمس، اللحظة التي كانت سبباً في شقائي اليوم...

عندما أتى ساطع لزيارتي، وهو صديقٌ قديم من أيام الدراسة الجامعية، كان يحمل معه ورقة دعائية لمكتب الشراع السياحي، قال لي حينها:

هذا المكتب يقيم رحلات إلى تركيا، وأنت يا صديقي العزيز بحاجة ماسة إلى مثل هذه الرحلات...

سيقوم المكتب برحلة قريباً إلى هناك وبما أنك تمر بظروف مؤلمة فَحجزت لك فيها كي تُنقّي ذهنك وتُصفي نفسيتك من الشوائب التي عرتك مؤخراً.

يومها أصابتني الدهشة من عرضه، فقلت له:

حقاًّ ما تقوله يا ساطع، فهنا أكاد أختنق من الذكريات...

لكن ما باليد حيلة العين بصيرة واليد قصيرة.

قاطعني قائلًا: لا تكمل يا شاهين، بحكم أعمالي التجارية وسفري المستمر وجدت المكان المناسب للظرف المناسب، لقد حجزت لك في رحلة إلى اسطنبول ستنطلق بعد أسبوع... ثم تابع:

أتمنى أن تقبلها مني هدية لعيد ميلادك.... هناك الطبيعة خلابة والأماكن الأثرية الرائعة ستنسيك كل ما مررت به من أحزان.

حاول أن يكون يومك سعيداً لتكون الذكرى في الغد سعيدة.

قلت له يومها: حسناً كما تريد فلا أملك القوة للمعارضة، لكن تاريخ مولدي بعيد!

رد عليّ: اعتبرها كذلك يا أخي.... وليس بين الأخوة مناسبات ليعبروا بها عن حبهم لبعضهم البعض.

سألته يومها: وهل هذا المكتب السياحي موثوق؟ أقصدُ المعاملة جيدة؟

أجابني بثقة: إنه المكتب الذي أتعامل معه في تأمين حجوزات السفر الخاصة بيّ، لا تقلق ستكون الرحلة ممتازة.

في الحقيقة كنت في أمس الحاجة إلى حدث ينتشلني من حالتي السيئة آنذاك، فقد ألبستني علاقة حب فاشلة عباءة حالكة منسوجة

بالمشاعر السلبية، ولا يمكن خلعها إلا بتغيير المناخ المحيط إلى الأفضل.

وهناك أثناء الرحلة كان لقائي الأول مع جوليا بما أنها تعمل مشرفة على الرحلات السياحية في ذات المكتب.

كانت الرحلة هي الفخ.... نعم! الرحلة طُعمْ ألقاه ساطع لي وأنا قمت بابتلاعه بسهولة!

ساطع لم يكن صديقي المقرّب حتى يًشغل باله بمشاكلي، كان إن رأيته مصادفةً في الشارع ليلقي السلام مسرعاً دون الوقوف وتبادل أطراف الحديث... حتى أنه لم يكمل تعليمه الجامعي لقد تركها في السنة الثانية لانشغاله مع والده بالتجارة والسفر المتواصل خارج البلاد لحضور المعارض الدولية.

مؤكد أنه لم يأتي لعندي محبةً أو شوقاً لي، كان مخطط له بدعوته تلك من ذاك المكتب تحديداً... نعم! كان يريد أن ألتقي بجوليا تحت مظلة الصدفة، لكنّ ما لست متأكداً منه أن تكون جوليا شريكة معه في تلك الخطة! ولمَ لا؟!

فمن أجواء تلك الرحلة المفخخة بدأت علاقتنا على أساس صداقة، ثمّ ما لبثنا أن رجعنا إلى حلب حتى تحوّلت إلى حب والحب انتهى بالزواج أو كما صحّ القول مات الحب بالزواج...

كان ذلك سريعاً جداً كوميض البرق، إصرار جوليا على الإرتباط دون حضور أهلها أو أحد من أقاربها خلّف المشاكل مع والدتي... ناهيك عن إختلاف الثقافات والعادات وكل شيء كان يجزم أن تلك العلاقة لن تنجح أبداً، ومع ذلك لم تأبه جوليا لكل ما سبق وأخذت تعزز في شخصيتي وتقوم بتلقيني دروساً في الرجولة والحرية في اختيار شريكة حياتي وبأننا مسؤولين عن اتخاذ قراراتنا دون الرجوع إلى أحد أو العمل برأيه...

استطاعت أن تعرف نقطة ضعفي وتستخدمها لصالحها، لطالما كنت أشعر بضعفٍ في شخصيتي بسبب ضآلة بنيتي ومظهري النحيل فأخذت تعزف على الوتر الحساس وتدخل من الباب الذي يخدم ظروفها.

جوليا فتاة ذكية متحررة مولودة في فرنسا من أب سوري وأم فرنسية، وصل والدها مرسيليا عن طريق التهريب البحري وهو في السابعة عشرة من عمره، كان شابًا في مقتبل العمر فارًّا من الحكومة السورية في أوائل ثمانينات القرن الماضي لبداية انتسابه

في تنظيم حركة الأُخوان المسلمين وقئذٍ... لا مال لا لغة ولا شهادة ثانوية نام في الحدائق العامة وأكل من بقايا الطعام المرمية في القمامة ... لا يملك سوى خصوبته مما دفع والدة جوليا على إيوائه في منزلها والاعتناء به، وبالرغم من فارق السن الشاسع بينهما فهي أكبر منه بنحو عشرين عاماً عرض عليها الزواج بشكل رسمي حتى تصبح إقامته نظامية ولا يتم ترحيله من البلاد، مسفراً زواجهما عن فتاة وحيدة أسمتها والدتها جوليا.

توفي والد جوليا بحادث سير مروع وهي في عمر الخامسة عشر، غادرها وهي مشبعةً بالقصص الجميلة التي كان يرويها لها كل ليلة عن مدينته حلب الشهباء حتى ملئها الشغف لزيارة تلك المدينة.... كانت تطلب منه كل عطلة صيفية أن يسافر بها إلى وطنه كي تنعم بما رواه لها، لكنه كان في كل عطلة يختلق أعذاراً كي لا يعود إلى هناك لأنه مطلوباً من الجهة الأمنية ويعرف متى يضع قدمه على الأراضي السورية سيتم إعتقاله على الفور.

والدتها اضطربت نفسياً بعد وفاة والد جوليا، فاعتنقت شرب الخمر سبيلاً للإدمان، وقد لاقت منها جوليا التنكيل والضرب والشتم المتواصل على أنها ابنة العربي الذي مات وتركها فجأة... ثمّ تدهورت أحوالهم المادية بعد دخول رجل مقامر إلى حياتهم...

فقد كان إيقاع سيدة ضعيفة مهزوزة سهلاً في قبضته، آخذاً باستغلالها وإستنزاف أملاكها في لعبة القمار... ولم يقف هنا فقط فقد حاول مراراً بالتحرش من جوليا لكنها كانت تستطيع الإفلات من براثنه في آخر لحظة!

أخبرت والدتها بما يحاول الذئب انتهاكه، لكنها للأسف لم تصدق أي كلمة قالتها عن الوحش الذي يسكن معهما في نفس المنزل فقررت الهروب إلى موطن أبيها حالما تطبق الثامنة عشرة.

وعندما رجعت إلى بيت جدها في حلب لم تستطيع الإلتزام بعاداتهم والتقيد بالمظهر الخارجي للبيئة المحيطة بها، وهم تعبوا من تحررها ونظرات الناس إليها ومراقبة تصرفاتها، فكان غير مرّحب بها من قبل أهل المنطقة كونها ابنة الفرنسية الشمطاء التي أغوت الفتى الصغير...

وقد خافوا على شبابهم من الوقوع في المشاكل بسببها وعارضوا صداقتها مع بناتهم خوفًا من تقليدها في تصرفاتها ثمّ إفلات زمام الأمر من يدهم وعدم القدرة في السيطرة عليهنّ فيما بعد...

فَرأت أن الحل الأسلم بابتعادها عنهم، ولكنها آثرت أن تبقى في حلب على أن تعود إلى فرنسا، لتبدأ حياتها هنا بعيداً عن كابوس يلاحقها هناك... انتقلت للعيش في دير يسوع العامل الخاص

بِالراهبات (الكرمليت) ضمن سكن الشابات بأرقى منطقة في حلب ثمّ دخلت مجال العمل وهي ما تزال صغيرة فاِستطاعت بذكائها واتقانها ثلاثة لغات رئيسية أن تعمل في الشركات التجارية ثمّ استقرت منذ زمن في عملها في المكتب السياحي الذي عرفتها بِوساطته.

روت لي جوليا تلك القصة في ليلة زفافنا، قبل اكتشافي بساعة واحدة على أنها ليست بعذراء...!

عندما يأتيك النصيب مستعجلًا، اِعلم أنه لن يتثنى لك الوقت أن تقوم معه بواجب كرم الضيافة.

كنت في موقفٍ لا يُحسد عليه، فعمق الصدمة التي وقعتُ فيها جعلني أتقيأ عرقاً إلى أن أصابني الجفاف، صرتُ حينها مثل قطعة خشب تَطفو على السطح وهي تعلم أنها في أحسن الأحوال ستكون حطباً لنارٍ متأججة طوال العمر.

من الظلم أن يحمل المرء مسؤولية نتائج أفعال الآخرين

خاصةً عندما يضعه القدر تحت الأمر الواقع.

اعتراني الصمت حينها، فبعد الجهد الذي بذلته في إقناع أهلي بزواجي من جوليا لم ألقَ ما يقابله من تعويضٍ لذلك.... لم أكن

أتوقع أن الإحساس الغريب الذي كان ينتابني قبل الزواج لم يكن سوى علامات وإشارات تجاهلتها لما سيؤول له حالي بعد الزواج.

إنه لأمرٌ مؤلم أن تشعر بالخذلان من أقرب الأشخاص إليك... حين يطعن بك مَن فتحت له صدرك لإحتوائه.

أنا أعترف أن جوليا مهما حاولت الإنتماء إلى وطن أبيها لن تنجح، ستبقى فرنسية ابنة الفرنسية القادمة من بلاد الفرنجة بعاداتهم وحرياتهم....

العصفور الذي يغرد في القفص بإمكانه أن يغرد خارجه

أما العصفور المعتاد على التغريد خارج القفص

لن يستطيع التغريد داخله كما لو كان حرًّا.

عصفور! مسكت طرفي كِرسي البامبو المعلق بِسقف الشرفة لأبتعد عنه واقفاً أراقبه وهو يهتز فارغاً، قائلاً له:

لن تقدر على حبس شخص وروحه تملك آلاف الأجنحة.

وبأجنحة الذكريات طرت إلى حيث وقعت، فقد مضت ثلاثة ليالٍ على زواجنا وأنا أنتظر جوليا بأن تشرح لي ما القصة وراء الصدمة التي أهدتني إياها في ليلة زفافنا، بينما أمي كانت تترقب

خلال هذه المدة أن أرمي بين يديها قطعة القماش البيضاء ملطخةً بدم فضّ البكارة والتي دسّت بها في جيبي في تلك الليلة!

وفي الليلة الرابعة هاتفتني أمي قائلة :

مابالك يابنيّ لمَ التأخير! والدك أنهى مهمته ليلة زفافنا خلال نصف ساعة.

لم أقل الحقيقة حينها لأمي فاخترعت حجةً علّها تنطلي عليها فَتقنع راضية، قائلًا لها:

إنه دلع البنات يا أمي فلنصبر عليها قليلاً بعد.

كان ردها جريئًا حينها حيث قالت لي بكل بساطة:

زوجتك ليست شرقية حتى تجفل، والفرس من خيالها.

قاطعتها مازحاً: تريدين الطمأنينة على فحولة ابنك إذن.!

كنت أحاول اصطياد الفأر الذي يسرح ويمرح دون رادع في ربوع صدر نبع الحنان، ثمّ تابعت قائلاً لها:

زماننا غير زمانكم يا أمي، في الماضي هي مهمة ويجب إتمامها في ذات الليلة حتى وإن كان أحد الطرفين غير مستعد نفسياً، أما اليوم فهي تجاذب عفوي لا إرادي يتم دون تخطيط لذلك.

قاطعتني حينها قائلة:

كفاك فلسفة على والدتك، في الماضي لا يرى العريس عروسه إلا مرة أو مرتين قبل الزواج، وبحضور الأهل في منزلها ثم ينقضي كل شيء في وقته وعلى أتم ما يرام... أما في الوقت الحاضر فالطرفين قبل الزواج مع بعضهما البعض دائماً لا يفترقا حتى وإن كان كل واحد منهما في مكان مختلف مادام الجوال موجوداً فليس هناك موضوع يعتب عليهما إلا وتَطرقا إليه، يعرف كل واحد الشاردة والواردة عن الآخر من أصغر قصة إلى أكبرها ثمّ تأتي وتقول لي في هذه الليلة يجب أن يكون هناك تجاذب عفوي ولا إرادي دون تخطيط مسبق!

قلت في دهاليز نفسي: آه يا أمي....

ليس كل ما يظهر لنا قبل الزواج هو الحقيقة، هنالِك أشياء لا تتضح إلا عندما يكون الطرفان تحت سقفٍ واحد.

مضى أسبوع وأمي ما تزال تلح على إسترداد هذه الخرقة التي تحمل الدليل على ما تنتظره، ثمّ بدأت تهمز لأمور أهرب من مواجهتها مع جوليا...

لم يعد هناك مفر مما اضطرني أضرب على صدري موعداً أمي قائلاً: غداً سيكون عندك ما تريدين.

عدت إلى جوالي العجوز أتفقد ذاكرته فوجدت أنها أفضل بعد عملية المسح الكاسحة التي قمت بها، فتحت ذاك الفيديو -لم أعد أحصي عدد المرات- لَيقوم بإنعاش ذاكرتي...

فعاد بي إلى ليلة رجوعي إلى المنزل بعد أن أطلقت الوعد إلى أمي بأن أعيد لها أمانتها، كنت مثقلاً بحبكة رواية أبطالها من صنع جوليا ولست متأكداً من أنهم حقيقيون أم هم مجرد شخصيات اخترعتها زوجتي لتكون نهاية سعيدة لقصة حزينة كما قصة بياض الثلج والأقزام السبعة....

لم يكن يهمني التفاصيل بقدر ما كان يهمني التوقيت الذي عرفت به ذلك بنفسي!

لمَ أخبرتني ما تريد هي أن أعرفه ولم تخبرني ما يجب عليّ معرفته، ولمَ اختارت ليلة زفافنا لتقص لي حكايتها ولم تخبرني إياها من قبل!

لقد عرفت جوليا تماماً ما يشغل بال الجميع في ليلة الزفاف، الطهارة والعفّة هما هاجس كل رجل شرقي وكل أم والمجتمع بأكمله في تلك الليلة.

كان لا بدّ من ردم وادي الصمت بيننا بعد أسبوع من حفرها إياه، إذ كلما طالت المدة زادت معها سعته وسيكون من الصعب جداً سماع صوت أحدنا الآخر...

دخلت غرفة النوم وكلي قلق بما سيؤول عليه الحوار، نظرت حولي فلم أرى سوى ذاك السرير لنحل ما انعقد عليه منذ سبعة أيام... جلست على طرفه وهي جلست على الطرف الآخر، كأنها كانت تريد حجب عينيها من مرمى نظراتي لها وأن لا أضع عيناي في عينيها وهي تتكلم!

كان الأجدر بها أن تجلس بجانبي لأرى تعابير وجهها عما ستفصح هي الأخرى، وأن أغرف من عينيها ما تخبئه عني فَالعين مغرفة الكلام كما يقولون...

لم أنتظر طويلاً فتحت بوابة الصمت وبدأت الكلمات تتدحرج، قائلًا لها: جوليا علينا أن نتحدث قبل أن تنتهي إجازة الزواج، ويعود كل منا إلى عمله.

استقبلت مبادرتي بتنهيدة عميقة حملت معاني كثيرة تشابكت في قاموسي ثمّ أردفت قائلة:

لحظات الغضب كفيلة بأن تُصيب بصائر المرء بالعمى، وتجعله يتخذ قرارات قاسية تجاه مشاعره، فيصبح بعدها نادم...

فأرجو منك قبل أي قرار أن تفكر بأيامنا الحلوة التي قضيناها سوية.

قلت لها حينها: لا أحد يموت من الحب مهما بلغ من درجاته، وإنما نموت من الألم، نموت من الخوف ومن الظلم.

كان عليكِ أن تخبريني بذلك، أفضل من إكتشافه بنفسي...

أتعلمين يا جوليا ما هي أصعب لحظة؟

أصعب لحظة هي لحظة انقطاع الحبل... عندما يرتبط شخص بآخر إرتباط عاطفي يتكوّن حبل يصل بينهما في اللاوعي

وانقطاعه يسبب آلاماً مبرحة للروح، إنه شعور مرير ولاذع أن ينقطع الحبل ونحن غير مستعدين لذلك.

هنا اضطرب صوت جوليا عندما أخذت بالكلام قائلة:

ما الذي تريد أن تعرفه بعد؟ أتريد أن أقص عليك كم من الدموع ذرفت وحيدة أرتعش من الخوف بمجرد التفكير بِذاك الوحش المقامر.... وأني تعرضت للخطف والتهديد بسبب الديون المتراكمة عليه... أم تريد أن تعرف كم من الليالي سهرت وأنا أصلي أدعو الله أن ينهي حياتي بأسرع طريقة كما انتهت حياة والدي أم تريد أن تعرف كم مرة حاولت الإِنتحار وفشلت.... أتريد أن أقول لك كم عانيت من سخرية أصدقائي بسبب وضعي العائلي المضطرب! وكم من المرات حلمت بالنوم على حضن أمي وَهي تقبلني قبلاتها الدافئة كأي فتاة عادية... كل هذا وأكثر يا شَان إن أردت ذلك.

هناك أحداث تحمل من القبح ما يكفي لِتشويه الذكريات!

وحضورها غير مرغوب فيه، فَنتركها للنسيان.

توقفت برهة عن سرد آلامها وأخذت تتنهد ثمّ أجهدت بالبكاء، وقفت متقدماً نحوها إلى أن صرت أمامها... أمسكت ذقنها بأطراف أصابعي لأرفع رأسها بحيث تقع عيناي في عينيها قائلاً:

مؤلم حقاً أن يمشي المرء وحيداً في نفق طويل مظلم، وتنهال عليه الصفعات من حيث لا يدري... وحين يخرج إلى النور متأملاً بكشف الحقيقة، يتفاجأ من هول ما هو عليه! فيتمنى أن يفقد بصره قبل أن يرى ما رآه.

ثمّ رميت لها المنديل الأبيض قائلاً:

هاك الذي يقلقني، أخبريني كيف أصبغه لأتخلص منه، فأنا أريده جاهزاً غداً.

أخذت جوليا المنديل وهي تقول: سيكون كما تريده غدًا.

كثيراً من الرجال توقفوا هنا لكني حينها أردت المتابعة، خفت أن أكون ظالمًا إن أدرت ظهري لها، غير معتبراً لأي كلمة قالتها لي، فربما تكون صادقة والقصة التي روتها لي صحيحة.

فَخلال ذَاك الأسبوع الماضي بعد زواجنا ذهبت وفتشت عن عائلة والدها بحسب اسم الكنية التي أعطتني إياها... وبالفعل وجدتها كما روت لي في حيّ شعبي قديم مزدحم لا علاقة له في تطور

المدينة، وهناك سألت عن اسم والدها... فكان الجواب أنه لا يوجد أحد بذاك الاسم أو لربما توفي منذ زمن بعيد، تعددت المعلومات حوله إلى أن وجدت عجوزاً يجلس أمام دكان للخردوات، اقتربت منه أتابع السؤال علّ وعسى يكون الرد القاطع لديه ... قمت بتحيته ثمّ أخذت بسؤاله فكان رده أنه يذكر منذ حوالي ثلاثين سنة وأكثر كان هناك شاب لتلك العائلة هاجر بعيداً ولم يعد... ثم أشاح وجهه عني كأنه يريد أن يقطع الحديث بيننا، ثم قال: لا يعرف أحد هنا سبب الهجرة المفاجئة لذاك الصبي آنذاك!

لم أستطيع وقتها أن أبقى طويلاً في الحي، فنَظرات أهله كانت تلاحقني بالإضافة إلى الكلام المتطاير الذي كان يحط في مسامعي... فالجميع ظنّ أني قادم من جهة أمنية أبحث عن هذا الشخص لأتَقصى أخباره وما آل به الزمن بعد ذاك الغياب، لذلك قمت بِالإكتفاء بما عرفت مبتعداً عنهم بهدوء فلا أحد يرغب بالإفصاح أكثر مما قالوه.

قول الحقيقة يتطلب دائماً الشجاعة والجرأة

وكي تملك هاتين الصفتين عليك أن تكون حرًّا.

وكما قالت لي جوليا: في الغد سيكون كما تريد، وقد كان فعلاً!

استيقظت يومها متأخراً عن موعد دوام المدرسة بضعة دقائق، كانت جوليا قد سبقتني إلى عملها، بينما أنا قمت على عجل كي أتدارك التأخير وألحق تحية العلم الصباحية.... ذهبت لآخذ جوالي وقد كان المنديل الأبيض مطوياً وموضوعاً بجانبه على الطاولة الصغيرة، تناولت المنديل وفتحته فوجدت عليه بقعة دم حمراء وورقة مكتوب عليها جملة واحدة...!

(إن لم تأتي الحياة معك، اذهب أنت إليها.)

قلبت الورقة وكتبت (هي واحدة فلتكن بيني وبينك لنعيشها معاَ).

لم أدقق حينها كيف فعلت جوليا ذلك، كل ما كان يهمني أن أتخلص من تلك المعضلة، وملاحقة والدتي بالضغط عليّ بنظراتها وتلميحاتها.

ومن تلك الليلة قررت أن أنسى ماضي زوجتي، وأبدأ معها من جديد فأكون حاضرها والمستقبل ليولد لها ماضٍ يكبر معنا وذكريات تجمعنا مع بعضنا البعض....

وقد تمّ زواجنا فعلياً بعد خمسة أيام من حلّ موضوع المنديل لأسباب صحية منعت جوليا إلى يوم الإنتهاء منها متضحًا لي بذلك كيفية صبغ المنديل.

بعدما رأيت اليوم الفيديو والتصوير الذي كشف سراً بإمكانه أن يبقى محفوظاً إلى الأبد، لم أعد أستغرب ما قد تفعله جوليا من أجل تسيير مصالحها الشخصية...

لكن ما هي مصلحتها فيما فعلته بالأمس!؟ وماذا تريد من ذلك!

إن تغيير معالم الحقيقة يتطلب قوة جبارة

بالإضافة إلى مشاعر مزيفة تكمن في وضع نكهة مميزة

لواقعٍ نتناوله كل يوم بكامل شهيتنا...

دخلت إلى الصالة ألتمس الدفء فقد غابت الشمس وراء السحب وانقلب الجو إلى البرودة فجأة، وبدأت السماء تبرق وترعد لتعلن عن هبوب عاصفة مطرية....

جلست على ذات الأريكة التي كنت غافلاً عليها بالأمس، أنظر إلى الجهة المقابلة مكان إندلاع الحريق أو مكان الجريمة التي تمت بالأمس وقمت أنا بطمس معالمها....

إلا أنه لا يوجد جريمة كاملة فلربما يكون الدليل على إِرتكابها لدى أهم شاهد مهما كان بعيداً عن دائرة الشك.

ومن هناك من ذات الركن المفجوع كل شيء بدأ وكل شيء سينتهي، فلم يعد لي طاقة على الإستمرار في حياة مليئة بأحداث لا مكان لي فيها سوى أني لعبة من عرائس الماريونت تتحرك بالخيوط كيفما ترغب جوليا غير آخذة بالاعتبار على أني روح تعشق الحياة وجسد من لحمٍ ودم.

كل ما عاد بي إلى الخلف كان بسبب ذاك الفيديو اللعين، عندما رأيت جوليا داخله تتجول بهدوء في الصالة، وفي يدها شمعةٌ مشتعلة اقتربت بها من الستارة لتُشعلها عن عمد منتظرة إندلاع الحريق فيها ثمّ هرعت بعدها نحوي وهي تصرخ:

شان... شان هيّا استيقظْ فَالبيت يحترق!

قمت مذعوراً من صراخها المفاجئ ثم انقطعت صورة الفيديو بوقوع جوّالي على الأرض.

لم أكن لأصدق ما فَعتله بيّ لولا ذاك العجوز الذي شهد على الجريمة، مما رجع بذاكرتي إلى ملفات مقفلة كانت في طي النسيان قد قُيدت ضد مجهول.

في الحقيقة لقد تألمت بما يكفي عندما رجعت بالذاكرة إلى الوراء فقررت إرساله إلى جوليا عبر الواتس علّها في دفاعها تنقذ ما بقي بيننا من آخر رمق.

فتحت جهة الإتصال chèri لأبد محادثة جديدة بيننا فشاركت معها الفيديو المصور ثمّ عقبتُ عليه بكلمات:

لقد وشى بك العجوز وليس بعد شهادته إنكارُ.

قلبي يخفق بشدّة كبيرة بحيث أني أسمعُ قرعَ طبولِ الحرب معلنةً عن بداية المعارك ما بين الحقيقة والكذب، ما بين الخير والشر، ما بين الصواب والخطأ، ما بين الحياة والموت.

الذاكرة أشبه بأرضٍ خصبة تَحرثها عقارب الزمن

فما نزرعه اليوم سوف نحصده غداً...

ونوع البذرة التي تزرعها المواقف يحدد ما سَتأكله الذكريات من محصول...

تعود بداية ذكريات كلّ منّا لأول حادثة قوية اصطدم بها

وتختلف توقيت البدايات من شخص إلى آخر بحسب حدّة الموقف الذي اعترض مسيرة خطواته الأولى.

4

لكلِ شيءٍ

تحت السموات وقت

الكتاب المقدّس

قلبي يخفق بشدّة كبيرة! أسمعُ قرعَ طبولِ الحرب معلنةً عن بداية المعركة ما بين الحياة والموت...

الشجاعة وحدها هي مَن تلزمني في هذا الموقف، عليّ أن أكون ثابتًا في كيفية التعامل مع الأحداث التي تحيط بيّ.

هي كبسة زر ويتغير كل شيء، على كلٍ منّا أن يعرف أين يقف وما حدوده التي يجب الحفاظ عليها، وألا يتعدى تلك المساحة بإنتهاكات أخلاقية.

لم أستطيع إرسال الفيديو، لقد تراجعت في آخر لحظة... سأقوم بتأجيله بعض الوقت إلى حين نهاية عملها فلربما تكون مشغولة والوقت غير مناسب لاستفزاز غضبها.

لكنّ لمَ أنا خائفٍ منها إلى هذه الدرجة المقيتة وكأني أنا المذنب أقف خلف القضبان مطالباً بمحاكمة عادلة دون توكيل محامٍ يدافع عني..! وهي القاضي الذي يحكم على هواه بلا أية أدلّة قاطعة تخدم القضية.

لمَ أحسب لردة فعلها ألف حساب! بينما هي لا تفكر إلا بنفسها وما يؤول عليه مزاجها، وأنا لا حساب لي عندها سوى صفراً على الشمال في كل المعادلات!

أريد أن أبرهن إلى السنين التي قضيتها وأنا على تلك الحالة بأني موجود، ولا أحد يمتلك الصلاحية في عدم وجودي على وجه الكرة الأرضية سوى الإله الواحد.

وسيأتي يومٌ أتخلص فيه من كل ذرة ألم، كنت متمسكًا بها كأنها كنز باهظ الثمن، أو أرث ورثته فجأة ولا أرغب بالإفصاح عنه كي لا أُصاب بالحسد....! سيأتي يومٌ وأتنازل فيه عن كل الآلام دون مقابل، فقد حان الأوان للتحرر من ذاك العبء.

صفير العجوز يُفصح عن قدوم رسالة نصية من جوليا تقول فيها أنها اضطرت بشكل مفاجئ للسفر إلى طرابلس بِشأن العمل وستغيب فيها بضعة أيام!

ما هذا الهراء؟ أي عملٍ هذا يستوجب سفرها بتلك الطريقة السريعة في هذا الوقت المتأخر! لقد شارفت الساعة على الثامنة مساءً.... ولمَ لم تتصل هاتفياً بينما اكتفت برسالة! أكاد أجن من هذه المرأة وتصرفاتها، إنها تدخلني في متاهات وَألغاز تدعوني أفقد صوابي منها...!

يحتاج الإنسان في كل مرحلة من مراحل حياته إلى الشعور بالاستقرار والسكينة لذلك يلجأ إلى الزواج ليهدأ باله وتستقر نفسه، فالزواج تعاون مشترك بين الطرفين وليس تنافساً على السلطة والسيطرة والنيل من الآخر....

الزواج منظومة إجتماعية راقية يخدم جميع الأطراف بعضهم البعض لبناء أسرةٍ سويةٍ وإنسانية تمتلك مقومات النجاح، وليس علاقة عبدٍ بسيد أو جلّاد بسجين.

الحياة الزوجية يجب أن يبنيها الطرفين على أعمدة أساسية أهمها

الاحترام، الاهتمام... التفاهم والصدق، وليست على تراكم كتل من التنازلات من طرفٍ واحد للآخر!

في زحمة الحياة والإنشغال بالمسؤوليات والضغوط، قد تنسى الزوجة واحدًا من أهم عوامل تماسك أسرتها والحفاظ عليها، وهو العامل المتمثل في إحترام الزوج بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

تحتاج المراة دائمًا ان تتذكر أن زوجها ليس مجرد شخصًا عابر في حياتها، وليس بالدرجة التي تسمح لها بأن تتعامل معه بنوع من الإِستخفاف أو الإعتداء سواء على مشاعره أو دوره في الحياة.

ضغطت زر الاتصال لأَتحدث معها عن تلك المهمة المفاجئة، لكنها لم ترد! وبعد عدة محاولات في الإتصال دون رد منها أصبح يفضي بأن هاتفها مقفول! ألهذه الدرجة جوليا تعتبرني طرطور.... لست إلا قدم كرسي في المنزل تأتي وتذهب على هواها غير معتبرة لوجودي في حياتها! أَيمكن أن تكون جملة قصيرة في رسالة قد حلّت الأمر لهذا التصرف الأرعن....؟!

وأيّ سفرٍ في هذا الجو العاصف فالمطر خارجاً حبال تتدلى من السماء تصل الأرض، ولا مجال لأن يتخلل بينها شيء فهي كالبنيان المرصوص يملأ كل الفراغات.

حسناً يا جوليا فلكل بداية نهاية ونهايتنا قد بدأت، سيكون هذا آخر إنتظار أنتظرك فيهِ، وبعدها آخر لقاء لأَحسم ما بيننا من ألم لا مبرر لوجوده.

لربما يكون الغياب أبسط الحلول لكلا الطرفين في العلاقة الشائكة، كي يحسب كل أحدهما مقدار الجرح الذي سببه للآخر مقابل اللحظات السعيدة والموازنة بينهما لمعرفة أي كفّة منهما سترجح وتفوز لتنتهي اللعبة.

وهو كذلك يا جوليا، سيكون غيابك بالنسبة لي إجازة هادئة أعرف فيها أين أنا وما هو محلي بالإعراب في قواعد هذا القفص.

أصابتني نوبة من التوتر الشديد بسببها رحت أبحث عن لفافة تبغٍ لأحرقها بين شفاهي وأطفئ بلهيبها نار موقدة منذ سنوات....

كفى ترددًا يا رجل! لقد رميت ظهرًا كل السجائر في سلة المهملات وقطعت وعدًا على نفسك أن تتجاوز قرار تركها بحزم دون الرجوع للتدخين....

نعم، لقد آن أوان وأد التردد في تنفيذ أي قرار أتخذهُ وقد أتألم لفترة بسبب ذاك لكنه أرحم من الندم بقية العمر.

بعض القرارات يجب أن تكون حاسمة وحازمة، لا تذبذبَ فيها والأمور التي تجعلنا نشعر بالسوء علينا التخلص منها مهما كلفنا ذلك من عذاب....

الحياة السليمة تكمن في تغيير عاداتنا نحو الأفضل.

الجو خارجاً يشتد فوضى من برق ورعد ورياح عاصفة ترافقها سيولًا من المطر... وكأن حالة الطقس تخبرني أنه لا بد من ثورة تعيد ترتيب الأمور حين تتفاقم الأشياء فوق بعضها البعض.

انتفضت واقفاً وفضولي كله يصب على غرفة جوليا، ما الذي تعرفه جدران هذه الغرفة عنها أكثر مما أعرفه؟

ما الذي تحويه رفوف الخزائن والأدراج، وأنا لا فكرة لديّ عما في داخلها! فمن عادة زوجتي أنها تقفل ورائها باب غرفتها عندما تخرج من المنزل، وتتركني في حيرة من أمري عما يوجد داخل هذه المغارة!

وبما أني رجلٌ يحترمُ خصوصية الآخرين لم أسألها عن ذلك التصرف قطْ، وقبل كل هذا أحترم نفسي فأنا أعلم أني سَأتلقى منها شتيمة إن وضعتها في زاوية الشك فقد اعتدت على أسلوبها وهو أن أسهل طريقة للدفاع هي الهجوم.

لكن كيف سَأدخلها دون عملية خلعٍ أو كسرٍ للباب؟ أريد شيئاً يفتح لي الباب كعبارة افتح ياسمسم التي تفتح باب مغارة علي بابا والأربعين حرامي....

مالي غير صديقي جوجل أسأله كيف تفتح باب غرفة مقفول بالمفتاح دون خلع الباب أو كسره؟

هناك طرق عديدة طرحها عليّ أنسبها عن طريق مشبك ورق مفتوح وإدخاله داخل القفل ثمّ تحريكه بعكس إتجاه عقارب الساعة، أحضرت المشبك لأفعل مثلما دلّني صديقي جوجل...

وضعته في القفل ثمَ أدرته ... واحد، إثنان افتح يا سمسم!

ها أنا في غرفة جوليا! لا أدري عمّا أبحث؟ كل شيء في مكانه مرتبٌ ونظيف، لا شيء يدعو للريبة إلا أني وجدت أثناء بحثي في أحد الأدراج حقيبة صغيرة مليئة بالأدوية لأول مرة أراها! أخذت كل علبة على حدى وقمت بالتقاط صورة لها استفسر عنها لاحقًا...

ثمّ فتحت الخزانة فوجدت أَلبستها معلقة بنظام والحقائب مرتبة حتى علبة الفسيفساء الخشبية بما تحويه من ذهب في مكانها بين الحقائب اليدوية.... وقوارير العطور بأكملها مصفوفة على سطح

التسريحة، الغرفة بكل ما فيها لا ينقصها شيء! هذا معناه أن قصة السفر لم يكن مخططاً لها، وأنها رحلة مفاجئة كما كتبت في رسالتها! وأي رحلةٍ تلك لبضعة أيام لا يلزمها حقيبة سفر؟!

نحن من يبني الحواجز بين بعضنا الآخر

ثم ينتظر كل منا مبادرة أو إشارة لِهدم تلك الحواجز.

أفكار تلف وتدور حول رأسي تفتش عن نقطة لتقف عندها لكن دون جدوى إلى أن أصابها الغثيان، أما أنا لا أملك ضمن إيطار حركتها سوى الإنتظار.

خرجت غرفتها دون أن أغلق الباب خلفي، فكل شيء لن يبقى على حاله بعد الآن... فأول بند سيكون في حالة استمرار زواجنا هو: (تحديد لكل واحد منّا واجباته ومعرفة حقوق الآخر).

كَوني أحبها لا يعني أن أعيش ذليلاً معها، فشعور الذل والهوان يجعلني أكره نفسي ومَن حولي ففي ذلك موتان في حياة مشتركة... موتٌ لي وموتٌ لها.

عليك أن تحب نفسك قبل أن تحب الآخرين

فالحب عطاء ينبع من الداخل وأنت من دون ذلك الحب

لن تستطيع أن تقول حتى كلمة أحبك.

يوم يومان ثلاثة أربعة أيام! ستمضي ومن صبر عشرة سنوات سيصبر بضعة أيام، وكل ما مرّ علينا أو سيمر سيكون بمثابة محطة في رحلة العمر...

قد نمر في حياتنا بمحطات كثيرة....

لربما ننسى فيها الزمان والمكان لكن لن ننسى المواقف.

الحياة مستمرة شئنا أم أبينا ولكل شيء تحت السموات وقت.

أي لا شيء يحدث عرضاً في هذه الحياة فكل ما في الأرض والسماء محدد من الله الواحد.

الإنسان بفطرته يحمل طباع الخوف من المستقبل والقلق، كذلك التسرع في حلّ أي مشكلة تواجهه، ويضطرب إن لم تحل فوراً مسببًا له هذا الإضطراب آلامًا نفسية كثيرة وهمومًا ثقيلة سيتعب من حملها مع الوقت.

لكنّ حياتنا بكل ظروفها وأوضاعها تسير حسب خطة منظمة معينة تحقق مقاصد الله في الوقت المناسب، وعلينا أن نؤدي واجباتنا بأمانة، ونثق أن خطة الله هي خطة حكيمة.

وكل ما في حياتنا هو أنسب شيء للوقت الحاضر، وليس في إمكاننا تغييره ولا تغيير إرادته.... بل لو سارت الأمور الآن بحسب الخطط التي نضعها نحن لفسدت حياتنا، فمهما دارت عجلة الزمن بنا إلى فوق أو إلى تحت فنحن في يد الرؤوف الجبار الذي سخّر العالم لأجلنا.

أعلنت نَشرات الأخبار المحلية في مختلف المحطات عن هبوط منخفض جوي عنيف على العاصمة بيروت، وحذرت المواطنين منها وطلبت توخي الحذر، وَملازمة منازلهم حتى إِنقضاء العاصفة التي قد تستمر لأيام....

جلست على الأريكة أقارن بصمت الفرق ما بين الطبيعة وبيني، فهي لا تهدأ حتى تقلب المدينة بكل ما فيها رأسَا على عقب بعاصفةٍ هوجاء، بينما أنا أقلب الصفحة بهدوء عندما يستوجب قلبها لأَبدأ صفحة جديدة بيضاء.

لا بد أن أفعل شيئاً في الوقت الحاضر، وإن كانت مجرد فكرة أو خطوة أبدأ منها طريقاً جديداً غير تلك الطريق التي أنا فيها ما دمت لا أستطيع العمل بشيءٍ آخر في هذا الطقس المرعب.

بعثت برسالةٍ إلكترونية إلى دار النشر أخبرتها فيها بأني سأشارك في حفل توقيع الكتاب، ذاك الكتاب الذي وُلد على تشجيع متواصل

من جلنار فهي مَن حثني على خوض تجربة الكتابة، وهي مَن نصحني عدة مرات في محاولة لكتابة كتاب كي أخرج نفسي مما هي عليه من حزنٍ وألم، ثمّ نشره ورقياً....

صديقتي جلنار عرفت ما يكمن بداخلي واستطاعت أن تخرجه، واستطاعت معه أن تخرجني من قوقعة الصمت دون عناء...

وها قد أتى الوقت المناسب لأقوم بجني ثمار ما زرعته من كلمات ما كنت أتوقع أن أجني ذاك المحصول الوفير منها بإقبال القرّاء على شراء الكتاب والحديث عنه في مواقع التواصل الإجتماعي...

اخترتُ أن يكون الكتاب شاملًا بقدر الإمكان فيما يحدث وراء الجدران، فمن عنوان الكتاب يتضح أنه يتكلم عن الحياة الزوجية بكل ما فيها من حلوها ومرّها، والمشاكل التي قد تتعرض لها مع طرح بعض الحلول التي توافق الطرفين....

وكيف بإمكاننا أن نحول قضبان القفص الذهبي بأقل الخسائر إلى شبابيك لتدخل السعادة عبرها وتملأ قلبا الزوجين هناءً وسرور، كاشفًا بذلك عن سرّ نجاح ذاك الإرتباط المقدس بين البشر على صعيد مختلف المجتمعات.

داخل كل منّا كنز علينا اكتشافه

إما بإجتهاد من أنفسنا أو بمساعدة الآخرين...

أين أنت يا جلنار في هذا المساء؟ كم أفتقدك! فالوحدة أكلت من وجودي وشربت من كؤوس العمر القريبِ منها والبعيدِ

هلا يا روحي أتيت و طردت ذاك الضيف الثقيلِ

هلا تصبحين حاضري وغدي وتكوني لي قدري الجميلِ

أنا ورب العبادِ تعبتُ من أكون جسد بلا روح

ومسافر جائع يبحث عن وطنٍ بلا زادِ.

باتت حياتي كلها ساعات من الحنين الظمآن يترقب لحظة سقايته بلقاء منها، وهي لا تعلم كم من الأنفاس تمنحني إياها الحياة عندما تطل عليّ بقطرات من التواصل معها....

وحنيني لها لم يخذلني ها قد ومض صندوق الرسائل يدلي بوصول رسالة جديدة على المسنجر، إِنها جلنّار لقد وَصتلها شجوني! لتبدأ المحادثة بيننا بسؤالها قائلة: كيف حالك؟

أجبتها: لقد أبلغني دار النشر مدى نجاح كتاب شبابيك القفص الذهبي ومدى كمية الطلب عليه في المكتبات لذلك سوف يباشرون

بطباعة الطبعة الثانية منه وقد بعثوا لي بدعوة للمشاركة في حفل توقيع ضمن فعاليات معرض بيروت الدولي للكتاب.....

ردت عليّ: مبارك نجاحك شاهين، عليك أن تتابع إنجازك وتستمر بالكتابة ففي داخلك موهبة يجب الإعتناء بها.

قلت لها: لكنّي لست بخير يا جلنار، بُعدك قتل الفرحة في قلبي

ولا طعم للسعادة إن لم نشاركها مع مَن نُحب.

علقت على كلامي قائلة: بل أنت الخير كله، فلننظر فقط إلى الأشياء الإيجابية في حياتنا فمهما بلغ بنا اليأس وسكنت المآسي قلوبنا لا بد أن تفرج عندما نتسلح بالإيمان ونسطوا على مخازن الأمل لنتابع مسيرة العمر نحو الغد فالقادم دائماً أحلى....

قلت لها: أخشى من الوقوع وحيداً، وأن تموت عندي الرغبة في النهوض والمتابعة لأن غيابك يُضعف قدرتي على مواصلة المسير.

فردت بكلمات عميقة قائلة:

الغياب يا عزيزي لا يعني الرحيل أبداً

فالشمس تَغيب حيناً لتُشرق بعد حين...

كذلك هو الصديق الذي واعدك على الوفاء

إن غاب عنك قسرًا فَحضورك عنده في حصنٌ حصين

وإن صمتَ أنتَ ألماً فأنينك مسموع في جوارحه

هو بجانبك دائماً وإن كنت لاتراه ستشعر بطيفه يحوم حولك

هو معك في كل لحظاتك، يدعو لك بالخير والسعادة.

هناك يا عزيزي أشخاص لا يمكنك الجدال عليها

أو وضعها على رفوف الأمنيات المهجورة

فهناك أَحاسيس ليست هواجساً كما تظن يا صديقي

وإنما تعيش معها حقيقة لا يمكن تصنيفها تحت كلمة أوهام.

كتبت لها: لقد تعبت يا جلنار من سؤال نفسي ذات السؤال على إجابة تعرفها....

لأننا أحيانًا وبكل بساطة نقول عكس ما نشعر

ليس خوفاً من أحد وإنما حفاظاً على أشخاص نهتم لمشاعرهم.

قالت لي: لا مانع إن أعطيت نفسك فرصة لتغير ما فيك حتى تتغير الإجابة، فلربما تنتظر منك الصواب فيما ستفعله في الأيام القادمة.....

في بعض المواقف عليك تقمّص إحدى الشخصيات المختلفة

لتتأكد من نفسك وَمما تريد.

حاول أن تفعل شيئاً تنقذ فيها الأمور الجميلة من الموت

لا أحد.... لا أحد يا صديقي سيكون لك صديقاً مخلصاً مثل نفسك، فلكل منا ظروفٌ خاصة به تحوم حوله، وتقوم بِعجنه ليكون ما هو عليه...

اخلق أنت الظرف الذي يناسبك كي تستطيع المتابعة على هذا الكوكب...

سر مرفوع الرأس واثقًا من قدراتك ولا تنظر إلى الخلف فالماضي غالبًا ما يُعيق التقدّم...

لا تعلق حياتك بشخص لربما يرحل عنك يومًا، ولا تعتاد على شيءٍ ثمين فالأشياء الباهظة لا تدوم

ضع هدفاً وحارب من أجله، فلكل منَا هدف يتوجب عليه حمايته وكن كما تريد أنت أن تكون لا كما يريدك الآخرون....

حقق حلمك الحبيس مهما بلغت من العمر، فحلمك ينتظرك لتحقيقه وقد لا يدعك تعيش بسلام إلى أن تطلق حريته....

كن قويًا دائمًا مهما لعبت معك الأيام، فَالقوة صفة نَكتسبها عندما نخرج من الأزمات بقوة أكبر من قبل دخولها.

شكرتها قائلًا: شكرًا لك جلنار.... لا أعلم كيف كنت سأتخطى كل ذلك من دون كلماتك ووجودك في عالمي.

تابعت تقول: هيّا يا شاهين....

قم واستيقظ من عالم الخيال فقد حان الوقت أن تلبس عباءة الواقع، فمهما كان خيالك واسعًا لن يغطي قبح الحقيقة التي نعيشها، ولن يكون أقوى من الذي يشاركنا يومياتنا بكل ما فيها...

هناك يا صديقي أشخاص موجودة في الحياة ليسوا وهمًا أو سراب، هم حقيقة ذوات جسد وروح، لكنّ غير ملائمين بالقدر الكافي كي يخرجوا من العالم الإفتراضي ويقفون أمام الواقع الذي

نعيشه، وبالمقابل هناك أشياء معنوية عليك أن تشعر بها بشكل مادي محسوس لتستطيع مواصلة حياتك بطريقة واقعية.

سألتها: لمَ تقولين ذلك! ما وراء كلامك يا جلّنار؟

كان ردها: هل فاجأك كلامي! هذه هي الحقيقة يا صديقي ولا يُمكنك إنكارها مهما حاولت الهروب منها إلى صفحة لقلبك الفرح،

هي لحظات تعيشها في خيالك وما تلبث أن تعود إلى حيث أنت.

لم يكن متوقعًا أن أقرأ ما قرأته من جلّنار

فكتبت لها معاتبًا وفي صدري حريق لا يطفئه سوى كلمة واحدة إن قالتها خمدْ:

وماذا كانت الخمسة سنوات الماضية بيننا

والرسائل التي حمّلتُ مشاعري عليها بكل صدق...

ماذا كان برأيك الحنين الذي سرق من قلبي آلاف النبض

ليزرعه ياسمينًا على شرفتك يعزف لك أجمل الألحان

وعصافير الشوق التي كانت تطير كل صباح إليك

تنتظر منك ردّ التحية لو حتى فتاتًا تُلقينه لها...

هل هي مخضُ أوهام عندك أم أنها مجرد كلمات

كنت تقرئينها وتمضين في حال سبيلك؟!

وضعت أصبعي على زر الإرسال لأَبث لها حزني وآلامي لكني تراجعت، لقد مسحت كل ما كتبته لها... لا أريدها بعد اللحظة مجرد زائرة داخل قلعة مشاعري التي طالما دافعت عنها بكل ما أملك من عواطف فقط لأكون عزيزًا في داري.

لقد ظهر عندها عبارة جاري الكتابة لكنه لم يصلها حرف!

فكتبتْ: ما الكلمات التي قمت بمسحها يا شاهين ولم ترسلها؟

إنها تسأل عمّا كتبتهُ ولم أرسله لها!

لم أعلّق على سؤالها وأخذت أكتب بسرعة أُسابق بها مشاعري لأصل قبلها إلى الكلمات قائلًا لها:

نكتب عن الأشياء التي فتشنا عنها خُلسة في الحياة المثالية ولم نجدها....

لذلك ليس كل ما نكتبه حقيقة وليس كل ما نقرأه واقع

هناك أشياء لا يمكن أن نكتبها أو نقولها لأن الكلمات وحدها لا تكفي لتعبر عمّا نشعر به أو عن ما نريده في حياتنا....

قامت بالتعقيب على كلامي قائلة:

وبالمقابل هناك أشياء تفقد قيمتها حين نقولها أو لا جدوى من قولها فنَدعها ترقد داخل قلوبنا بسلام.

أيقنتُ أنه لم يعد لأي كلمة أقولها أو أكتبها صدى في حجرات قلب جلّنار، شعرت أنها قررت الرحيل بطريقة لائقة فتركتها تكتب لتفرغ ما بجعبتها متابعةً:

ها قد وضعت قدمك في طريق الكتابة والمحطة الأولى كانت ناجحة، أتمنى أن تُثبّت خطاك على ذات الطريق وتتابع مَسيرك لتصل إلى القمة.... القمة التي تليق بك يا شاهين.

أمّا نحن فيؤسفني أن أخبرك أننا وصلنا إلى هنا، إلى آخر جسرٍ يصل بيننا وأتمنى أن يبقى موصولًا باللحظات الجميلة التي جمعتنا مع بعض...

اعتني بنفسك صديقي فالنفس لها علينا حق.

ثمّ أنهت كلامها بجملة مع السلامة، لم تكتب إلى اللقاء!

تركتني أًضرب أخماسًا في أسداس وأسأل نفسي إن كنت سببت لها مشكلةً أو إزعاج حتى ترحل فجأة هكذا دون تمهيد...

لم أكن لأطلب منها سوى دعمها النفسي لي وَسماع دعائها كدعاء أمي الصافي الذي يروي بأسي بقطراتٍ من الأمل...

أقسى الآلام هي التي تقتلك بصمت

كل ما فيكَ يَأن وعلى فيكَ ابتسامة العجزِ

إنه الوطن ... عندما يجرح يقتل

وعندما يطلب يأمر....

بحبنا يكبر وحين نحبه يرحل.!

5

نفس الأشياء

وبنظرةٍ مختلفة.

أقسى الآلام هي التي تقتلك بصمت

كل ما فيكَ يَأن وعلى فيكَ ابتسامة العجزِ.

لم أنم ليلتها، لقد أتاني التفكير بكل ما حمل من قلقٍ وأرق شاغلًا حواسي كلّها حول ما كنت عليه وما سأكون، قابعٌ هنا وحيدًا في المنزل ألف وأدور حول ما ضاع مني من فرص بسبب ضعف خلقته لنفسي وَجعتله يكبر في قلبي، وبين ما ينتظرني من أهداف عليّ الوصول إليها قبل فوات الأوان، لكن يجب أولًا قتل هذا الضعف ودفنه في تلافيف العقلِ كي أحقق ما أصبو له...

نزلت إلى الشارع هارباً من سجني باحثاً عن الحرية، أستنشق الهواء النظيف بعد موجة المطر الغزير التي اجتاحت بها بيروت لثلاثة أيام مضت...

كل شيء أصبح نظيفاً من أشجار وطرقات، كادت الشوارع أن تكون خاوية إلا عدد بسيط من الناس...

أخذت أنقل نظراتي بين وجوههم فرأيت حكايات خطّها الزمن في مجلدات مغلقة ليس لها اسمًا أو عنوان... خرجوا لغسل قلوبهم من الهم والحزن بحجة قضاء حوائجهم، أو موعد مهم لا يمكن تأجيله، وبعضهم كان يملك حق العودة إلى منزله من يومٍ شاق في مكان مجهول!

آه كم أشتاق إلى العمل والعودة إلى الأوقات التي كنت أقضيها في المدرسة، إلى إجتماعات الكادر التدريسي حول ذات المواضيع وإلى ثرثرة المعلمات التي لا تنتهي، وإلى مشاغبات الطلاب العفوية المتوارثة عبر الأجيال، وإلى الضوضاء الصاخبة في فرصة الاستراحة، وإلى الهدوء المبطّن بمكرهم وقت إعطاء الدرس... كل هذا وأكثر من الحنين الجارف الذي يحط بيّ هناك.

أن تعيش بكل أحاسيسك في زمان غير زَمانك

ومكان غير مكانك، أمرٌ يستحق التأمل فيما أنت فيه.

مع حركة النزوح من الوطن تغيرت فينا أشياء كثيرة

بات الجميع يتنفس بصمت، يأكل دون شهية

يعمل من أجل لقمة عيشه لا من أجل تحقيق حلمه

لا وقت للتفكير بالحاضر أو التخطيط للمستقبل

فكل ما بنيناه سابقاُ هدمته الحرب

وكل ما قطعناه من مسافة طار مع عواصف الدمار

عدنا لنبدأ من جديد.... لنبدأ من الصفر

أصبحنا كالآلة مجردة من أي شعور

فلم نعد نحزن للموت ولا نفرح للحياة

لم نعد نتألم من الخذلان أو نتأوه من التعب

لم نعد نشتاق للحب أو نَحِنّ للحبيب...

جلّ ما يهمنا أن نعود لنقف على أقدامنا بثبات

ونكسر الأطراف الخشبية التي قلدتنا إياها الحرب وساماً

ثم نجعلها حطباً يحترق ندرأ به البرد عن ما بقي من آمال

فلا يوجد آلام أشد من أنك تعيش وأنت ميت!

إنها الحرب التي جعلت من الإنسان لاجئ مشاعر

على جميع مختلف المستويات....

جعلت منه لاجئ كرامة في زمن فيه رغيف الخبز أهم

ولاجئ حب لا قيمة للحب لدى موطن أصم...!

جعلت منه لاجئ سلام لقلوب تضحك للحزن والألم

ولاجئ حياة على كوكبٍ لا طعم للحياة فيه

إن لم يملك أبسط حقوقه في العيش

كالطعام النظيف والمسكن الصحي....

الحرب حوّلت قلب الإنسان إلى صوّان، وما خُفيَ أعظم!

رحتُ أمشي في شوارع بيروت لأكثر من ساعة أشحن إرادتي بالقوة إلى أن وصلت الشاطئ الغربي من المدينة حيث أخذت صخرتها الضخمة تلوح لي من الأفق البعيد، فهي منارة دروب العاشقين واليائسين في آنٍ واحد....

كلّ منّا يرى نفس الأشياء بنظرةٍ مختلفة

بحسب الحالة النفسية التي هو عليها.

فتارةً تكون صخرة الحب ملتقى العشاق وقبلتهم كما مشهد الحب الذي جمع الفنان عبد الحليم حافظ مع الفنانة نادية لطفي في فيلم أبي فوق الشجرة على وقع أغنية جانا الهوى جانا....

وتارة أخرى هي صخرة الإنتحار وإن كانت بريئة من الحوادث المشؤومة التي تنسب إليها وذلك لأن من يبغى الإنتحار عليه العوم مسافة لا بأس بها إلى الصخرة وتسلقها إلى القمة وهذا شبه مستحيل إلى شخص بائس يائس من الحياة.

أما أنا حالياً فأراها أمامي صخرة متمردة عمن حولها من الصخور، استطاعت بحركتها تلك أن تكون معلم سياحي يتوافد عليها الكثيرون لِإلتقاط الصور أمامها.

ولمَ لا! بلا تردد فتحت هاتفي على وضعية الكاميرا لأَقوم بإلتقاط سيلفي والصخرة خلفي، رفعت العجوز إلى الأعلى وجعلته مقابلاً لوجهي آخذاً وضعية الحزم مبتسماً من أجل أن تكون الصورة جميلة جاعلاً من تلك الصورة شاهداً على بداية تحوّل قطعي لا رجعة فيه....

ثمّ فتحت تطبيق الواتس آب مصمماً على تنفيذ قراري ضاغطاً على زر الإرسال مرسلاً إلى جوليا مقطع الفيديو دون جدال مع نفسي، فقد أردت أن أنهي أمراً لأبدأ بآخر من جديد... ثمّ قمت بإلتقاط سيلفي ثانٍ يوثق عملية تنفيذ العملية التي قمت بها بنجاحٍ تام.

فإن أردت التغيير عليك أن تبدأ بتغيير نمط حياتك.

لكن هناك شيء غريب مختلف عن الصورة السابقة، لقد اختفت الإبتسامة! اختفت لأنها ابتسامة كاذبة والأحاسيس المزيفة تومض في لحظتها لتَختفي كأنها لم تكن...

لن أرسل مقطع الفيديو، سأنتظر عودتها إلى المنزل...

عدتُ وفتحت الواتس اب لأمسح الفيديو الذي أرسلته إليها قبل أن تقضي المدة المسموح بها الحذف.

هناك مسائل تزداد تعيقدًا عندما نحاول حلَها بأساليب غير واضحة، بينما يكمن الحل الأمثل في المواجهة.

أدرتُ ظهري للبحر وإلى الصخرة الظاهرة من أحشائه، أنهرُ قلة حيلتي على كل السنوات الماضية... فَمَن تلك الجماد مقارنةً بي حتى تكون كما تريد وأنا البشر أقف أمامها لا حول لي ولا قوة!

بعض الغفلات تحتاج هزّات قوية لِتعيدك إلى الواقع، هي حياة واحدة، عليك أن تعيشها كما تريد أنت، وليس كما يريد الآخرون أن تعيشها لهم...

لا أحد يعيش من أجل أحد، فكل امرءٍ مسؤول عن حياته وعن طريقة اختياره الأسلوب الذي يلائمه بالعيش فيها...

أياً كان ترغب فيه ستجده داخلك، إن كان شراً أو خير ستجده ينتظر إشارة واحدة منك لَيبدأ بالتنفيذ وفي كلا الحالتين وحدك من سيتحمل النتائج، وحدك من سيحمل الإثم والجزاء أو الأجر والثواب، فَكن حريصاً على معرفة ما تفتش عنه، حتى لا تكون زخّات العرق المهدورة أثناء البحث مجرد قطرات من الملح تذوب مع مرور الزمن... والخبرات تأتي من التجارب التي تمنحك إياها الحياة أما الحِكَمْ تنالها من الدروس التي تدفع ثمنها.

في خضم ما مرّ بيّ كنت مشغولًا عن زوجتي، لم أسمع صوتها خلال الأيام الماضية فهي إما لا ترد على اتصالاتي أو يكون جوالها مقفلًا مما زَادني توترًا وحيرة فيما لو أصابها مكروه

بحادث سير على طريق السفر حين كان الطقس ثائرًا أو أنها تعرضت لعملية سرقة أو خطف!

كان الأجدر بيّ أن أفعل شيئًا حيال غيابها المقلق! وما كان عليّ فعله هو التوجه إلى الأمن الداخلي لأخبرهم عن غياب زوجتي وإعلان البحث عنها بأسرع طريقة فقد أكل مني القلق حتى شبع ولا مكان لأي إحتمال جيد...

رنين العجوز يصدع من جيب البنطال، أخرجته لأرى مَن المتصل وإذ برقمٍ غريب يظهر على الشاشة!

أجبت: آلو، مَن المتكلم؟

أتى الصوت متحدثًا: تحياتي لكم يا أستاذ شاهين، معكم المستشفى الفرنسي قسم متلازمة نقص المناعة المكتسبة.

سألت المتحدث: وكيف يمكنني أن أَخدمكم!؟

أجابني: رقم هاتفك مع اسم حضرتك مُدرجٌ في إستمارة السيدة جوليا في حين ساءت حالتها الصحية أن نتصل بكم لاعلامكم.... الرجاء التوجه إلى المشفى بأقرب وقت.

لم أفهم في بادئ الأمر ما أخبرني به موظف المستشفى، لكن بعد الدهشة التي خضت كياني أدركت أن زوجتي مريضة! وفي قسم نقص المناعة المكتسبة!

منذ متى؟ ولمَ لم تخبرني!؟

أسئلة كثيرة أخذت تصول وتجول في ميدان أفكاري تفتش عن جواب واحد، وأنا لا أستطيع التخمين في الوضع الراهن فالأمر لا يحتمل احتمالات...

لا بدّ أن هناك أجوبة لا يمكن معرفتها إلا من صاحبة الأمر جوليا.

ركضت مسرعًا لأوقف عربة أجرة تقلّني إلى المشفى وإذ بأحد المّارة يَصطدم معي بعنف في منطقة الكتف فيقع العجوز من يدي! وإلى أين! سقط على حافة الرصيف في بركة من المياه الضحلة المتراكمة بمياه سيول العاصفة المطرية الماضية....

غرست يدي مكان سقوطه لاحقًا إياه لأَنتزعه منها قبل أن يختنق، لكنّي لم أجده! لقد اختفى نهائيًا...

يا إلهي! ما هذا الحظ السيئ الذي وقعت فيه أيها العجوز، فقد كانت البركة نتيجة انسداد مجرور للمياه وقد سقط فيها خلال قضبانه الحديدية دون رجعة....

النهايات السيئة لا تليق بأصحاب البطولات

ذاك لأنهم يستحقون أفضل حفلات الوداع.

صعدت إلى سيارة أجرة وأخبرت السائق أن يقلّني إلى المشفى الفرنسي، الطريق بين الروشة والمستشفى تستغرق ربع ساعة....

لأول مرة لم يرافقني بها العجوز منذ أن قمت بإِقتنائه، لم أكن أتوقع له تلك النهاية فقد شهد على أحداث كثيرة حصلت معي موقظًا رُكاد الأحداث السابقة طيلة فترة زواجنا... لمَ إختار أن يتركني الآن! وأنا بأمس الحاجة له... لكن لا بأس ما فعلت عندما مسحت الرسالة الأخيرة التي أرسلتها إلى جوليا، فالوقت حالياً غير مناسب البتّة لفتح الأوراق.

أن تعطي اهتمامك اليوم للذين قاموا بالإهتمام بك سابقاً من أرقى درجات الإِحترام لنفسك.

وصلت المشفى وتفكيري في شتات جرّاء المخابرة المفاجئة التي قامت بتوليد جيشًا من الأسئلة في ميدان لا قائدًا له...

فهناك أمور كثيرة أود أن أعرف عنها.... من أين انتقل إليها المرض وكيف أصبحت مصابة به!

ومن يقوم بتغطية مصاريف المشفى والعلاج؟

ولمَ لم يتم إعلامي من قبل؟

استقبلتني موظفة الإستقبال لتقودني بعدها إلى غرفة الطبيب المسؤول على مراقبة صحة جوليا.

أصبت بنوبة صمتٍ لم أخرج منها إلا والطبيب يربت على يدي قائلًا:

البقاء لله سيد شاهين، كل من عليها فان، ولا يدوم سوى الخالق الأحد.

بحالة آلية أجبته: لمَ لم تخبروني بحالها قبل الوفاة؟

رد عليّ: عذرًا منك لدّي أعمال أقوم بها....

سألته: هل لي برؤيتها للمرّة الأخيرة؟

أجابني: بالتأكيد ستقوم بوداعها، هاك شهادة الوفاة وغدًا سيتم تسليم جثتها لتقوم بإجراءات الدفن... للمرة الثانية أقول لك كل الأوجاع ستنتهي حين يأذن لها الربّ فكل نفس ذائقة الموت والبقاء لله رب العالمين.

ساقني أحد الموظفين إلى غرفة منعزلة بآخر الممر في طابق تحت الأرض من المشفى، دخلنا الغرفة وأنا غير مدرك تمامًا لما حصل كأنه حلم في منام مستسلمًا له وأنتظر انتهائه....

كانت الغرفة باردة في وسطها طاولة حديدية من الواضح أن عليها جثة مُغطاة بشرشفٍ أبيض، اقتربنا منها فقام الموظف بكشف الغطاء عن الوجه لإلقاء آخر نظرة....

وقفت مذهولًا عند رؤيتها للوهلة الأولى! لقد تغيرت كثيرًا في مدة بسيطة فقد احتلّها المرض وبسط معسكراته على جسدها الهزيل فباتت كقطعة لحمٍ محنطة... فليغفر لك الرب يا جوليا.

صوتٌ أجشّ قطع حبل الشرود الذي أوصلني المشفى في خيالي قبل قليل! قائلا: ها قد وصلنا المشفى يا أستاذ.

عدت إلى الواقع على صوت سائق الأجرة وهو يعلمني لوصولنا إلى الجهة المطلوبة....

يا إلهي! لقد كانت أوهامًا تدغدغ أعماق باطن النفس البشرية....

لقد سمحت لها أن تقترب من رغبتي الدفينة بموت جوليا لتنهي معاناتي معها.

حين يَمتلكنا التعب ويغلبنا اليأس في تغيير طباع شخصٍ ما مهما كان قريبًا، نتمنى له أقصى درجات البعد أو الفراق، ألا وهي الموت.

دخلت المشفى كَأنني أدخل فندقًا لخمسة نجوم لأناقة التصميم والفخامة التي تكسيه، لا بدّ أن إقامة الليلة الواحدة فيه تكلّف الكثير من الدولارات....

توجهت إلى جناح الإستقبال لأخبر الموظفة عن قدومي فطلبت من إحدى الممرضات إيصالي إلى غرفة الطبيب المشرف على علاجها....

وجه الطبيب ليس غريبًا، لقد عرفته على الفور... إنه الرجل والد الفتاة التي حضرنا حفلة تخرّجها من الجامعة منذ سنوات! نعم، إنه هو! ذات الشخص الذي عرفتّني عليه جوليا على أساس أنه مديرها في العمل...

يا إلهي! كم أنا غبيٌّ وأعمى لم أدرك أن زوجتي مريضة بالرغم من عدة إشارات كانت تدل على أن هناك أمر غريب.

من بداية تغير مزاجها المفاجئ نحو العصبية وصراخها الغير مبرر إلى شرودها المتواصل، وهذول بنيتها بشكل سريع وإتخاذ قرار السفر إلى بيروت للإبتعاد عن الناس المحيطة بنا أولًا وللعلاج ثانيًا ثمّ إصرارها على عثور منزل بحمام منفصل في غرفة نوم خاصة، وعدم السماح لي بمشاركتها الفراش ووضع الكمامة الطبية على فمها وأنفها بشكل شبه دائم وكثرة حالات إرتفاع حرارتها وعلبة الأدوية التي وجدتها مؤخرًا في غرفة نومها..... كل ذلك علامات تشير إلى أن هناك شيء غير طبيعي!

وأنا الذي كنت أحسب نفسي أشعر بما يدور داخل الأرواح وأرى ما لا يراه الآخرون لم أفطن على حالة أقرب شخص أشارك يومه!

لكن يبقى الشيء الأهم الذي يحتاج تفسيرًا، لمَ حالة التكتم الرهيبة تلك التي تستدعي كل هذا الغموض؟!

ماذا تخفين هذه المرة يا جوليا! ولمَ لم تقومي بإعلامي بمرضك منذ إصابتك به!

المرأة عالم بحد ذاته لم يتم اكتشافه بعدْ.

اقتربت من الطبيب كرجلٍ آلي مبرمج على ما يجب أن يقوم بعمله.... فنظر إليّ قائلًا:

تفضل سيد شاهين، عليك أن تعرف حال زوجتك.

لقد أتت جوليا إلى المشفى منذ حوالي ثمانية سنوات أخبرتنا أنها تشك في حملها لفيروس ضعف المناعة المكتسبة، وكانت تريد التأكد من مدى صحة شكوكها بإجراء التحاليل اللازمة في المشفى.

سألته: هل يعني هذا أن النتيجة كانت إيجابية؟

أجابني: نعم للأسف سيد شاهين، لقد كانت في مرحلة ليست بمبكرة من الإصابة وعلى الفور باشرت في تلقي العلاج وزيارة المشفى في مواعيد دورية لمراقبة المرض....

في تلك المرحلة كان فيها الفيروس نشطًا وَيستنسخ نفسه داخل الخلايا بمستويات منخفضة جدًا وقد ظهر عليها أعراض خفيفة وكونها أخذت العلاج بانتظام تم السيطرة على الفيروس بحيث

مكّنها من الحياة لفترة أطول وأكثر صحة وقلل خطر إنتقال المرض إلى أشخاص آخرين.

قلت له سائلًا: لكن ألم يتوصل العلم إلى إكتشاف علاج نهائي منه؟

أجابني: نعم.... فقد أعلن أطباء بريطانيون منذ سنتين تقريبًا عن أول حالة شفاء لرجل مصاب بالمرض، لكن العلاج الجديد يمر في مرحلة التجربة فهو غير مخصص للاستخدام في المستشفيات بعد على نطاق واسع.

تابعت أسأل عنها: وكيف حالها الآن أيها الطبيب؟

ردّ عليّ: لقد وصلت إلى المرحلة الأخيرة من الإصابة، الفيروس قام بإضعاف جهازها المناعي في الجسم.

وفي حالة لا شعورية سألت الطبيب:

وكم لديها من الوقت كي تبقى على قيد الحياة؟

أجابني: لا أحد يموت من هذا المرض بشكل محدد، فالمصاب يموت بأمراض أخرى لأن نظام مناعته ضعيف جدًا لا يستطيع الدفاع عن أي هجوم خارجي.

أردت التوضيح أكثر فسألته:

كيف ذلك أيها الطبيب؟ ما المقصود من كلامك!

أجابني: يمكن أن تموت من الزكام العادي لأن جسمها لا يستطيع صدّ العدوى كأي شخص معافى يمكنه أن يشفى بسرعة منه... وقد حصل ذلك مع زوجتك فمنذ ثلاثة أيام داهمتها نزلة برد قوية ألزمَتها الفراش .... ادعو لها بالرحمة.

رأسي لم يعد يحتمل المعارك التي تدور بين أفكاري، فتابعت قائلًا للطبيب: هناك أسئلة كثيرة أود أن أعرف إجابتها رجاءً، من أين انتقل إليها المرض وكيف أصبحت مصابة به! ومن يقوم بتغطية مصاريف المشفى والعلاج؟ ولمَ لم يتم إعلامي من قبل؟

رد عليّ الطبيب قائلًا: لا أستطيع أن أفيدك أكثر من ذلك، أما بالنسبة لعدم معرفتك بالأمر فتلك رغبتها الملّحة ونحن احترمنا تلك الرغبة طالما تقوم بزيارتنا كل يوم وتتلقى علاجها بإنتظام، فلها جناحٌ خاص بإقامتها في المشفى...

ادعو لها بالراحةِ وَالرحمة.

سألته: هل لي بزيارتها؟

قال لي: سأدع الممرضة تقوم بتجهيزك لزيارتها، وعليك أن تختصر المدة من أجل سلامتها.

وعندما تنتهي من رؤيتها الرجاء منك التوجه إلى قسم أمانات المشفى فقد تركت لك السيدة جوليا صندوقًا هناك...

دخلت غرفة التعقيم وأنا غير مدرك تمامًا لما يحصل، بيدَ أني وجدت بعضًا من التفسيرات حول ما كانت تتصرف بهِ سابقًا...

ساقتني الممرضة إلى غرفة منعزلة بآخر الممر في الطابق الأخير من المشفى ثمّ قامت بتوصيتي بعدم خلع الكمامة حرصًا على صحة جوليا من نقل أية عدوى لها، فكما أخبرني الطبيب أن الكريات البيضاء الدفاعية منخفضة جدًا لديها...

وقفت مذهولًا عند رؤيتها للوهلة الأولى فقد تغيرت ملامحها كثيرًا خلال الأيام القليلة التي غابتها عني، كانت البثور الحمراء تملأ جسدها كهيئة طفح جلدي والقروح البيضاء منتشرة حول فمها، لقد هزلت بشدة لدرجة برزت فيها وجنتيها بشكل كبير... حتى صوتها تغيرت حدته وبات كمَن يهمس من بئرٍ عميق!

نظرت إلي ذات النظرة عندما تريد أن تحسم أمرًا قائلة:

مرحبًا عزيزي، اجلس...

قلت لها: سلامتك يا جوليا، كيف حالك اليوم؟

أجابتني: لن تصدقني إن قلت لك أنني بخير أو على الأقل هكذا أشعر... المرض علمني أشياء كثيرة

علمني قيمة الحياة وأن أكون متماسكة بالقدر الذي يجعلني أقف لمواجهته...

المرض علمني كيف يكون الصبر واقعًا في كل يوم كالماء والهواء، وأن الوقت له مكانته مهما فاض به الزمن...

المرض علمني التقرب إلى الله وأن لا قيمة لأَثمن الأشياء في هذه الحياة إن لم تكن تملك الصحة.

صحيح أن آلام الضعف داهمتني أحيانًا، وأفكارًا رست بي على صخرة الموت الفجائي... لكن الأمل بقي واقفًا بالمرصاد...

الأمل في الحياة هو أجمل الأشياء التي نشعر بها عندما نفقد السيطرة على مجرى الأحداث.

بالرغم من الحالة السيئة التي وصلت لها جوليا، ما زلت مصرًا على معرفة الكثير، فالكلمات التي قالتها لم تكن تعني لي بقدر الأمور التي أريد معرفتها، فقت لها:

سوف أصاب بالجنون يا جوليا..... يوجد أسئلة كثيرة تدور في رأسي ولن يوقفها سوى إجابتك عليها.

سحبت تنهيدة طويلة وهي تتأمل المنظر المطل على البحر البعيد من شباك غرفتها ثمّ قالت بهدوء:

هنالك من الأسئلة تملك صلاحية نهاية الإجابة عليها

لذلك فالأفضل رميها في سلة الماضي لمتابعة الحياة.

ثم تابعت تقول: سامحني على كل الآلام التي سببتها لك، وعلى كل الحيرة التي رافقتك طيلة فترة زواجنا، سأترك الحقيقة مدفونة في قلبي فهي لا تستحق العيش ولو في إجابة واحدة...

دعك من الحقائق فبعضها مؤلم لدرجة الندم على معرفتها

الموت قريب جدًا وعلي أن أكون مستعدة لإستقباله.

هناك صندوق صغير تركته لك، أتمنى أن تمر لأخذه....

أشاحت بوجهها عني إلى الجهة الأخرى قائلة:

اعذرني... أشعر بالإجهاد أريد أن أرتاح

أتمنى لك حياة سعيدة ... الوداع.

خرجت من غرفتها وأنا لا أصدق ما وقعت فيه، عشرة سنوات أعاني مع تلك السيدة، وبسهولة مطلقة أعادتني غريبًا كما كنت منذ عشرة سنوات! بكلمة واحدة اختصرتْ كل ما مررنا به، وبكلمة واحدة أنهت كل شيء كما بدأته.

عشرة سنوات لا أعرف عنها شيئًا سوى ما هو تريد أن أعرفه!

لا أدري من أي طينة معجونة تلك السيدة؟!

عشرة سنوات عشت فيها أكبر خدعة، وهي الزواج ثمّ تقول لي الوداع وكأن شيئًا لم يكن!! يا لقوتها..!

كيف لها أن تحمل كل ذاك الجبروت وهي على فراش الموت؟

وأنا الآخر أليس بالأمر الغريب أن أتحدث عن موت زوجتي ببساطة، إنها الآلام المتوارثة عبر السنين، لقد حولّت المشاعر إلى حجر وجعلت من الأحاسيس معدنًا صدأ.

هناك حقيقة عليّ قولها بصوتٍ مسموع، أنا بشر مخلوق كي يعيش بسلام... لست بالقساوة التي تجعلني أتلقى ضربة تلو الأخرى دون أن أنكسر، ولست بالليونة التي تسمح بأن أكون صلصالًا يتشكل كما يريد الآخرون!

وأعترف أني لست من جماعة الأبيض أبيض أو الأسود أسود فَالظروف تزجّ بنا دائمًا في لوحة من الألوان المتضاربة لنخرج منها بلوَنين على الأقل نمزجها مع بعض ثم نُقنع أنفسنا بأن هذا اللون الجديد هو لونٌ واحد.

عدتُ إلى المنزل حاملًا الصندوق الذي أوصت جوليا بأخذه من قسم الأمانات، مواء راموس لا يتوقف يريد الطعام واللعب فقد شعر بالملل وحيدًا.... وضعت طعامه في الطبق المخصص له ثم أمسكت به ألاعبه بعدما شبع إلى أن هدأ ونام.

حتى الحيوانات لها مشاعر وأحاسيس تعبر عنها وتطالب بما تحتاج، هذا الهر أفضل مني حالًا يعرف كيف يحصل على ما يريد.... أما أنا فلم أستطيع الحصول حتى على إجابة واحدة من جوليا بخصوص تلك الأسئلة التي ستفجّر رَأسي!

كم أفتقد جلنار! هي الوحيدة التي تعرف ما يؤلمني دون شكوى وما أحتاجه دون طلب... كم كنت أتمنى أن تكون هي زوجتي،

ألامس يدها أشم رائحتها.... نتنزه على الروشة وهي تمسك بذراعي، بل أعود معها إلى مسقط رأسي إلى مدينة حلب لنعيش هناك... نتنزه في ربوع حدائقها ونزور قَلعتها الصامدة، نأكل معًا نضحك معًا نسهر في الشرفة نتحدث مع النجوم... هي تغار من القمر وأنا أغار عليها من الليل، ثمّ ننام على ذات الوسادة. لكن للأسف كل تلك الأمنيات ذهبت مع الرّيح.

الأشياء الجميلة تأتي متأخرة بينما الأشخاص الرائعة لا تأتي.!

رحت أبحث عن العجوز هاتفي في جيوب البنطال فلم أجده، تذكرت بعدها أنه وقع مني عند الإصطدام بأحد المارة الذين يقطعون الشارع عندما كنت أتجول في أرجاء المدينة....

لقد رحل دون وداع! حتى هذا الجماد عرف من إقامته معي أني أكره لحظات الوداع، لا أحب أن أعيش في لحظة أعرف أنها النهاية كيّ لا تتسجل تلك اللحظة في ذاكرتي فأتألم كلما قرأها عليّ الزمن...

هكذا أفضل، ها قد رحل ورحل معه كل شيء، إنها لفرصة مناسبة أن أنسى برحيله كل الأحداث التي مرت بي...

في الحقيقة نحن لا نريد أن ننسى بل نحاول النسيان

كي نتذكر ما علينا نسيانه!

لكن الأفضل أن لا أترك خلفي مشجبًا أعلق عليه ما يثقل قلبي من أحزان فلا بدّ أن يأتي يومٌ أعود فيه للطيران حرًّا أينما شئت....

لم يعد سوى ذاك الصندوق لأنتهي من أمره..!

اقتربت منه لأرى آخر ما تركته لي تلك المجنونة، كان مغلقًا بشريط لاصق بشكل طولي وكِتب على جانبه إلى السيد شاهين!

وأي سيدٍ هذا لا يملك أبسط حقوقه!

إنها لَسخرية أن يكون لأسمائنا ألقاب لا تحمل معانيها.

نزعت الشريط وأنا أدندن كلمات أغنية أسامينا للسيدة فيروز ثمّ فتحت فردتي الصندوق وإذ بداخله هاتف جوليا وملحقاته بالإضافة إلى ظرف ورقي يَحوي بداخله شيكًا بمبلغ لا بأس به من العملة الصعبة!

ياإلهي....! أكاد أصاب بالجنون منها، كيف يكون لها رصيدًا في المصرف وأنا لا علم لي به! من أين لها هذه الأموال؟ ولمَ الآن قررت أن تعطيني ذاك المبلغ! أهو تعويض للسنين التي قضيتها في معتقل الزواج ظلمًا وبهتانا؟!

وأما جوالها الذي تنازلت عنه لربما أرادت أن توصل لي رسالة عبره وإلا كان الأجدر بها أن ترميه أو تحطمه أو أي شيءٍ آخر يمنعني من الوصول إليه...

فليس له تفسيرًا سوى أنها لم تعد تريد من هذه الدنيا شيئًا عندما شعرت بدنو أجلها.... أرادت أن تتجرد من كل العالم الخارجي لتكون وحيدة مع الموت، لا شيء يربطها في الدنيا إلا ذاك الجسد البالي.

هكذا نحن البشر.... عندما نقترب من نهاية الحياة نتمنى أن نعود كما ولدتنا أمهاتنا، لكن هيهات....! ما بين البداية والنهاية.

صداع رهيب حل في رأسي بعد الذي مررت به اليوم، أخذ يفتك به كالقرش المفترس بلا هوادة... يقذفه هنا وهناك إلى أن وقعت في فراشي طريح الألم، وبصعوبة بليغة تناولت كبسولة مهدئ فرحت بعدها في نومٍ عميق.

وجدت نفسي في حفلة عرس مقامة في منزلنا وأنا مكبلًا بحبالٍ من الشوك المدبب، كلما حاولت الحركة وخذتني رؤوسها فأعود للسكون وحولي أناس غرباء أراهم للمرة الأولى لا أعرف منهم سوى طبيب المشفى... وجوليا تقف أمامي مرتدية ثوب زفاف أبيض تبتعد على مهلٍ وهي تنظر نحوي إلى أن تتلاشى وراء غيمةٍ سوداء، أقف وقد حُلت جميع قيودي فَأصرخ بأعلى صوتي فرحًا لتحرري من الماضي....

استيقظت في الصباح مندهشًا لردة فعلي الغريبة حين غابت جوليا! فبدلًا من أن أصرخ حزنًا وألمًا رحت أصرخ من شدة الفرحِ كأنها صخرة كانت تكبس على أنفاسي تحاول خنق آخر حلم لكنها رحلت في اللحظة الأخيرة فعدت أتنفس الحياة بشكلٍ آخر.

لم يعد يهمني عدد السنوات التي أكلتها تلك المسرحية من عمري، جلّ ما أريده الآن إنقاذ ما تبقى من أيام والبدء بحياة خالية من الريبة والشك.

تناولت محارم معقمة ورحت أمسح جوالها قبل فتحه، بالرغم من أني على درايةٍ أن هذا المرض لا تنتقل عدواه بالملامسة إلا أني بحركةٍ غير مقصودة قمت بذلك!

أحيانًا حالة اللاشعور تفضح مشاعر نحاول إخفائها.

أردت أن أحصل على أي شيءٍ يقودني عمّا أبحث عنه، أن أجد خيطًا رفيعًا للغموض الذي أنا فيه فأقطع رأسه ثمّ أوصله بخيط الحقيقة.

فتحت تطبيق الواتس اب أولًا، لم أجد سوى المحادثات التي بيننا، وآخر رسالة كانت الفيديو الذي أرسلته لها وقمت على حذفه فيما بعد.

ثمّ اتجهت إلى الرسائل النصية فوجدت عدة مراسلات أولها الرسالة التي بعثتها لي تخبرني فيها عن سفرها المفاجئ.... تدرجت إلى الأسفل قليلًا فكانت رسائل من بنك بيبلوس يوضح فيها القيمة المالية التي تم سحبها في كل مرة من حسابها مع التاريخ الذي سُحب فيه المبلغ عن طريق شيكات أو بطاقة مصرفية...

يا إلهي إنها مبالغ هائلة من العملة الصعبة تجعلني أطفو عليها مخمورًا كأنني أطفو على صفحة البحر الميت! من أين لها بتلك الأموال ومن الذي مدها بكل تلك المبالغ الطائلة؟!

لطالما كنت أتسائل مع نفسي عن الأجر الذي تتقاضاه من عملها، لأن مصروفها الشخصي لوحده بمقدوره أن يفتح منزلين بسهولة في هذه المدينة.... ولأن الحياة هنا مكلفة جدًا لا يتناسب أي دخل معاشي مع المصروف الذي تصرفه! هذا إن كانت تعمل حقًا موظفة....!

أما في حالتها الصحية فهي بعيدة كل البعد عن ساحة العمل، ولا علاقة لها بالحياة العملية خلال كل السنوات السابقة، وما كان من خروجها ورجوعها إلى المنزل إلا تمثيليةٌ تقوم بها لإقناعي بأنها على ما يرام وبصحة جيدة!

هناك حلقة مفقودة في كل ما جرى ولا أحد يعرف أين هي سوى جوليا وهي ترفض إظهار تلك الحلقة!

انتقلت إلى سجل المكالمات لأرى ما فيها من مكالمات صادرة وواردة، فقرأت فيها عدة مرّات رقمًا محجوب عن الظهور.... كان يتصل كل خمسة إلى سبعة أيام وقد كانت مدّة كل مخابرة فيها تتراوح بين العشرة دقائق إلى الربع ساعة.

أحدهم كان يتصل بزوجتي بشكل دوري، وأنا آخر من يعلم!

مَن عساه يتصل بها كل أسبوع؟ أيمكن أن يكون هو مَن يرسل لها الأموال!

بالإضافة هناك وجود رقم فرنسي في قائمة الإتصالات الواردة والصادرة بتاريخ يتراوح بين كل أسبوعين مرّة!

على حدّ علمي أنه لم يبقى لها صلة بأي شخص في فرنسا فوالدة جوليا توفيت هناك منذ حوالي أربعة سنوات، لربما حصلت على ميراث من والدتها ولم تخبرني به!....

لقد سافرت جوليا مرتين إلى فرنسا بحجة الزيارة وَالإطمئنان على والدتها! ومع ذلك مهما كانت ثروة أمها طائلة لن تكون كَالمبلغ المتواجد في حسابها بالمصرف إلا إذا كان كل ما أعرفه ليس سوى قصة خيالية ألفتها جوليا.

قادني فضولي إلى أن أضغط زر الإتصال بالرقم الفرنسي فأتاني صوت آلة الرد باللغة الفرنسية ثم الإِنكليزية، فهمت من كلامها أن الرقم غير معدّ للخدمة حاليًا!

حفظت الرقم في جهات الإتصال لأرى إن كان تطبيق الواتس أو أي تطبيق آخر يعمل على التواصل معه عن طريق النت لكن لا شيء من ذلك، الرقم ليس مفتوحًا على تلك التطبيقات.

كلما أحاول أن ألتقط شيئًا تسقط مني أشياء، رأسي مثل لغم أُنتزعَ منه صمام الأمان ومهدد بالإنفجار في أية لحظة....

لم يبق إلا المسنجر أفتح ما فيه لأرى ماذا يُخبئ هو الآخر، دخلت التطبيق لم أرى من المحادثات الشيء المهم....

ثمّ فتحت الإعدادات لأقوم بتبديل الحساب إلى حسابي الخاص، كوني لم أعد أملك جوالًا فأردت استخدام جوالها إلى حين أقتني واحدًا جديد، مع أن جوالها آخر إصدار لكني لا أريد شيئا يربطني مع الماضي وخاصة معها هي....

وَإذ قرأت اسم حساب ليس بغريب! ضغطت عليه بأناملٍ ترتعش وقلبٍ انقسم إلى عدة قلوب، كل واحدٍ منها ينبض من جهة!!

رأيت المحادثات كلها....

هي ذاتها قرأتها من قبل وأنا مَنْ كتبَ فيها....!!!

يا للخيبة....! أن تكون جلّنار هي ذاتها زوجتي جوليا.

حين ترى نفسك على حافة هاوية فجأة! أدر ظهرك لها وامضي بغير رجعة، فلربما يكون الطريق الصحيح في الإتجاه المعاكس.

6

قلبٌ واحد

وطنٌ واحد.

يا لخيبة الرجل....أن تكون جلّنار هي ذاتها زوجته جوليا.

بقلبٍ يرتجف أجهش بالنحيب كالطفل الصغير

نزل يقرأ المحادثات التي كانت بينهما، كلها تشهد على أنه أكبر مغفل، خمسة سنوات أهدر فيها عواطفه على وهمٍ اخترعته جوليا... خمسة سنوات كانت تستهزئ به وتسخر من ذكرياته وآلامه، ها قد وقع في ذات الفخ للمرة الثانية!

وهذا أكبر دليل على أنه فأر تجارب اسمه شان كما كانت تطلق عليه زوجته وليس شاهين الطائر الحرّ الذي يبسط جناحيه على مروج السماء كما كان يدّعي.

كانت قهقهات صوته العالي تتخلل بكائه، فتارة يضحك وتارة يبكي... لم يعد يستطيع إستيعاب ما هو عليه وما مرّ به طوال تلك السنين.

فدخل في حالة من الهِستريا وقع فيها جرّاء الصدمة العنيفة وَالإنفعالات المتكررة التي أخلّت التوازن بين الأعصاب الحسّية منها والحركية، مما أفقده السيطرة على مشاعره فتفجرّت بشكل عشوائي فأخذ يصرخ بكلماتٍ مبهمة ويقوم بتكسير أي شيء يقع بمتناول بصره....

اجتمع الجيران وراء باب منزله مذهولين لسماع صوته! فالعادة تكون صراخ زوجته هو الذي يصدح في المبنى وليس صراخه...

أخذوا يطرقون عليه الباب كي يفتح لهم، لكن دون جدوى فهو في حالةٍ يُرثى لها.... وصراخه لا يهدأ مع صوت حطام أثاث المنزل الذي يعلو دون هوادة، متضحًا لهم أن الرجل في حالة جنونية فاقدًا لأعصابه....

أصبح الحال لا يدعو للإطمئنان فالوضع يسوء من سيء إلى أسوأ، وكان لا بدّ من الإتصال لطلب المساعدة فبادر أحد الجيرة لطلب النجدة ثمّ الإسعاف شارحًا لهم وضع شاهين وما عليه من

نوبة عصبية شديدة، ليتم بعدها عملية خلع باب المنزل وإنقاذه مما هو فيه....

في صباح اليوم التالي استيقظ شاهين في مكان غريب، صالة كبيرة فيها مجموعة من الأسرّة بعضها كانت مليئة بالمرضى، منهم مَن كان يأن من الألم ومنهم النائم...

أخذت عيناه تلف فيها وإبرة المصل الطبي مغروزة في وريده مستنتجًا أنه في مشفى، جسده ثقيل لا يستطيع التحرك حتى يده لم يقدر على رفعها....

حاول أن ينادي إحدى الممرضات ليطلب المساعدة لكن صوته لم يتجاوز فتحة فمه فرجع مرتدًا إلى جوف حنجرته خائبًا ليعود حبيسَ حباله الصوتية!

قريب الظهيرة دخل رجلٌ خمسيني يبدو أنه الطبيب المشرف برفقته مجموعة من الشباب والآنسات مُكتسين بالبياض، راحوا يتجولون بين أَسرّة المرضى.... يجتمعون حول كل سرير على حدى لَيتكلم أحدهم وبيده ملف المريض ثمّ ينتقلون إلى السرير المجاور، إلى أن وصلوا سرير شاهين فتناول أحدهم ملفه الطبي وبدأ بالشرح أمام الباقي عن حالته الطبية.

كان شاهين يراقب حَركتهم وهو يحاول إِستيعاب ما يدور بينهم من حوار، لكن كلماتهم كانت مبهمة وغير مفهومة بالنسبة له.

ثمّ تقدّم الطبيب نحوه متحدثًا ببطء:

سلامتك، كيف حالك؟ أَتستطيعَ أن تقول ما اسمك؟

لقد حاول شاهين أن يقول شيئا ولكنه لم يقدر على النطق بأي حرف ...

تابع الطبيب: حسنًا، أنت في المشفى الجامعي الحكومي...

لقد تعرضت إلى صدمة نفسية عنيفة عندما كنت وحيدًا في منزلك، إثر حدث غير متوقع لا نعرف ما هو!

ولم تكن مستعدًا له أو لم تستطع القيام بمنعه من الحدوث، سَنتركك هنا حتى تتعافى...

نتمنى أن يحضر أحد من أقربائك لتَسيير بعض الإجراءات اللازمة ... معافى.

لم يخرج له صوتًا ففي حالته يفقد المصاب قدرته على الكلام، إكتفى بإيماءة خفيفة من عينيه أشارت أنه فهم ما قال له الطبيب.

تابع الطبيب قائلًا مع إبتسامة واضحة:

لا تقلق سيعود صوتك لك حالما تصبح مستعدًا لإستقباله، كتبنا لك علاجًا عبارة عن مضاد إكتئاب وبعض المهدئات... حاول أن ترتاح كي تشفى.

مضى يومان وهو مستلقٍ على السرير إلى أن تعافى رويدًا رويدًا حتى بدأ يتكلم بكلمات مختصرة ويأكل طعام المشفى ويتجول في الممرات أو في حديقة المشفى....

ثمّ غادرها في اليوم الثالث بعد أن طمأنه الطبيب قائلًا له:

عليك الإبتعاد عن أي شيء يسبب لك التوتر والإلتزام بتناول الأدوية بإنتظام وإلا ستتعرض إلى نكسة صحية قد تودي بعقلك أو قلبك....

احذر الضوء الأخضر قد لا يعني العبور آمن

كذلك معظم الحوادث قد تأتي من الضوء الأحمر.

راح يسير في أزقة بيروت متثاقلًا شارد الذهنِ وهو ما يزال يرتدي طقم النوم ذاته (البيجاما) عندما أخذوه إلى المشفى بسيارة الإسعاف، غير مهتم لنظرات المارّة التي تراقبه بذهول ودهشة

إلى أن شعر بالإرهاق فتوجه إلى منزله مقررًا القيام بتغييرات كاملة.

وقف أمام باب منزله يتأمل كيف سيدخله دون مفتاح! فقد خرج من المنزل في حالة صعبة لم تمكّنه من أخذ أي شيء معه....

جلس على درجة السلّم يلتقط أنفاسه المهدورة واضعًا رأسه بين ساقيه ليرتاح من رحلته المفاجئة، ومواء راموس لا يتوقف من خلف باب الشقة المقابلة، فقد وصله رائحة صديقه الغائب وهو مشتاقٌ للقائه....

وإذ بجاره الذي يقطن أمام منزله ينتبه إلى صوت الهرّ ليعرف أن هناك شيئًا ما، ويريد راموس أن يعبّر عنه، فخرج يستطلع الأمر، ليلقى شاهين متئكًا إلى حافة السلّم...

وسرعان ما أصبح راموس بين أحضانه، يحتفل برجوع صاحبه بعد غياب وشوق، بينما تقدّم الجار نحوه بكل هدوء، وجلس بجانبه قائلًا له: حمدًا لله على سلامتك يا جاري... لقد أصلحنا باب شقتك المخلوع، وتركت مفتاح دارك بحوزتي، لقد احتفظت به إلى حين عودتك، لحظة وسآتيك به...

هزّ شاهين رأسه بالإيجاب مرفقًا دلالته بإبتسامةٍ طفيفة...

وبعد دقيقتين رجع جاره وبيده المفتاح، مقبلًا نحو شاهين ليعيده إليه متابعًا كلامه: هل أنت بخير؟ إن إحتجتَ شيئاً سأكون رهن المساعدة، إتصل بي فقط وسأحضر في الحال... أتمنى لك راحة البال والصحة الجيدة.

نظر شاهين إلى جاره نظرة شكرٍ وإمتنان لكل ما فعل بخصوص الإعتناء براموس وإصلاح باب الشقة، ثمّ تركه ليدخل المنزل، كان المكان في حالة خراب فلا شيء بقي سليمًا من حطامٍ إجتاح كل ما وقع عليه إعصار غضبه الكاسح منذ أيام....

أخذ يُراقص بصره في جميع الاتجاهات فوجد أن كل قطعة من أثاث البيت أُضيف لها صفة جديدة! ....

كرسي مخلوع، أريكة مقلوبة، طاولة مكسورة، مرآة مهشمة وستائر ممزقة....

كل شيء بات يحمل صفة قامت بتشويه ما كان عليه سابقًا، حتى هو لم يعد مثلما كان من قبل بل أمسى رجلٌ محطم.

مضى شهرٌ حاول فيه شاهين أن يرمم نفسه بنفسه، فلا أحد كما قالت له جلّنار أو جوليا يستطيع مساعدة نفسه مثل صاحبها....

ومن أجل ذلك عليه أن يكون قويًا ليتابع الحياة

لكنّ ليس هنا....

ليس على أرضٍ ليست بأرضه

ولا تحت سماء ربطت السحاب جناحيه

عليه أن يكون قويًا ليعود إلى الحياة

ليعود إلى وطنه....إلى مسقط رأسه.

وخلال تلك المدة قام بجمع كل همومه وذكرياته المؤلمة في حقيبة النسيان ووضع فيها جوال جوليا والشيك المصرفي ثمّ توجه بها إلى البحر....

البحر ذاك الأفق الواسع الذي يأخذنا إلى عالم آخر، نرمي له أوجاعنا وهمومنا ليعطينا مقابلها الراحة النفسية والسعادة المترامية مع أمواجه الساحرة....

في الحقيقة هو يحمل من الروعة ما يكفي ليدعو العشاق إلى مغازلته وَمسامرته، ومن الظلم والغدر بذات القدر حين دعى اللاجئين لرحلات الموت وقام ببلع قواربهم لافظًا بأحلامهم على ضفافه دون رأفةٍ أو رحمة.

إنه موعد غروب الشمس، موعد لقائها مع البحر ليتهامَسا على وداع يومٍ مضى من تقويم الوجود....

وقف شاهين يراقب لحظات اللقاء والوداع في أجواء لطيفة، وألطفُ ما هناك صوت الأمواج الذي أخذه إلى صفاء بعيد راميًا بالحقيبة السوداء في أعماق البحر ليتخلص بذلك من كل الأشياء التي مرّ بها خلال السنوات العشرة.

عاد إلى المنزل وهو فارغًا من الماضي، يومان وسوف يبدأ معرض بيروت الدولي للكتاب وهو ملزمًا بحضور حفل توقيع كتابه شبابيك القفص الذهبي فقد أعطى وعدًا للدار بالحضور، وسوف يفي بوعده مهما كانت ظروفه سيئة، لقد اعترت أيامه السابقة الظمأ نحو اللحظات السعيدة، لذلك قرر ملأ الحاضر بها عسى ولعلّ تتغير ذكرياته ويتغير معها كل شيء.

ولأن وعد الحرّ دين عليه فلا بد من وفائه بعدما أصبح حرًا.

دخل المعرض مصصمًا على أن يعيش فرحة حياته في تحقيق حلم آن له أن يكون حقيقة، اتخذ مكانه وراء الطاولة المجهزة له وعليها مجموعة من الكتب، كل واحدٍ منها ينتظر صاحبه الجديد....

كانت طبقة المتزوجين حديثًا والمقبلين على الزواج هم الأكثر شراءً للكتاب، وقد كان شاهين ينهل منهم الكتاب واحدًا تلو الآخر ليكتب على صفحته الأولى البيضاء جملة قصيرة مهداة إلى حامله برفقة تاريخ اليوم...

امتدت نحوه يد ناعمة من وسط ذاك الحشد الغفير فأعطته كتابًا ليفتح أولى صفحاته ثمّ بدأ يكتب عليها... إلى ؟

توقف لثوانٍ وبين أصابعه القلم ينتظر النطق بالاسم حتى يدونّه على الصفحة، صوتً رقيق دخل مسامعه ليملي على يده أن تكتب.... إلى جلنار!

ودون أن يرفع قلمه إلى الأعلى كتب معاتبًا:

إلى جلنار...

ليس إنتصارًا أن تقومي بهدم أسوار قلاعي

وأنتِ تملكين مفاتيح أبوابها.!

أتمنى لك قراءة ممتعة وكل الإفادة.

ثمّ ختم بتوقيعه والتاريخ، إلا أن الآنسة أخذت تنادي عليه:

ـ أستاذ شاهين يا أستاذ شاهين

اسمي جُلبَهار....جُلبَهار وليس جُلّنار !

رفع شاهين نظره مبتسمًا ليرى من هي تلك الفتاة التي بسبب اسمها كاد أن يقع في بركة ماضيه الضحلة! قائلًا لها:

أنا أعتذر منك يا جُلبَهار، لا عليكِ سوف أصحح الخطأ.

أخذ شاهين كتابًا غيره ليكتب عليه:

إلى جُلبَهار....

حافظي على مسافة الأمان من حولك

حتى وإن كانت مجرد ذكرى أو حلمٍ صغير.

بينما تابعت جُلبَهار بعفوية قائلة:

أنا التي أعتذر لك يا أستاذ شاهين، فكلا الاسمين قريبان على بعضهما، فهما من أصول تركية أولًا، وثانيًا لاجتماعِهما بكلمة جُل وتعني الوردة أو الزهرة باللغة العربية... فَجُلنار يعني زهرة الرمان وجُلبهار يعني زهرة الربيع.

رد عليها شاهين بصوت هادئ:

تفضلي نسختك يا جُلبَهار، أتمنى لك ربيعًا دائم.

وكأن جولنار قبل الرحيل حقنت ذاكرته ضد الإصابة بنسيانها

كي تبقى تفاصيلها مرضه المزمن الذي لا شفاء منه.. ظنًا منها أنها بنت سقف الكفاية لأمانيه وأن ليس للحياة طعمًا ولا لونًا ولا رائحة من دونها!

لكن حدث شيئًا غير متوقع، فمع ذاك الإهداء البسيط استطاع شاهين أن يجتاز كل ما مرّ به على أنه تجربة أضافت إلى حياته درسًا لن ينساه، فالحياة ذاتها بحاجة إلى أخطائنا كي تستمر شريطة تصحيحها قبل فوات الأوان.

أمضى ليلته الأخيرة في المنزل مستيقظًا يترقب موعد إقلاع طائرته في الصباح الباكر من مطار بيروت متجهًا إلى مطار حلب الدولي.

في فترة غيابه عن حلب كان قد حدث تغييرات كثيرة أهمها استسلام الفصائل المعارضة المسلحة خلال معارك ضارية مع الجيش السوري وخروجها من الأحياء الشرقية للمدينة بعد نحو خمسة سنوات من سيطرتهم عليها.... وعودة تلك المناطق إلى سيطرة النظام وإعلان تلك الأحياء بمنطقة آمنة بعد بسط الأمن

والأمان عليها بتطهيرها من الألغام وإزالة المفخخات التي زرعها الإرهابيون، مما سمح للأهالي بالعودة إلى بيوتهم وإعادة ترميم منازلهم أو إعمارها من جديد بالتعاون مع مؤسسات المدينة ومديرياتها الخدمية....

وبفضل ورشات الصيانة والعمل بالترميمات بشكل مكثف داخل المرافق الحيوية في حلب، عادت المدينة كما كانت قبل الدمار الذي لحق بها من وراء المجموعات الإرهابية.

وقد تم تأمين طريق مطار حلب الدولي لعبور الآليات والسيارات وإعادة تأهيل المناطق المحيطة بالمطار بعد انقطاع دام حوالي ستة سنوات.... وأصبح المطار مستعدًا لاستقبال الطائرات على المدرج بعد عملية صيانة شاملة له مما قام بتسهيل عودة المغتربين إلى وطنهم.

سنوات الحرب الشاقة والتي أوقفت مرافق الحياة في مدينة حلب طويلاً، انجلت كالسحابة السوداء التي كانت تحجب نور الشمس... فالجيش السوري وفى بوعوده وصان الأرض بعدما أعاد الحياة للمدينة.

حطّ شاهين على الأراضي السورية بعد غياب امتد إلى ثماني سنوات معانقًا سماء وطنه بجناحيه الصغيرتين، غير آبه بعدد

السنوات التي انقضت من عمره ذليلًا مقابل سعادته الكبيرة بعودته إلى حضن وطنه وأهله.

اتجهَ مباشرةً إلى كوّة ختم الجوازات القادمة، فهو لا يحمل حقيبة سفر ليقوم بإنتظارها من على ممشى الحقائب.

لقد عاد بنفسه فقط دون أي شيءٍ من الخارج....

عاد بروحه المتعبة التي أنهكتها رحلة اللجوء القسرية

عاد وبحوزته أغلى ما عنده....

إنها الوثيقة الرسمية التي يثبت فيها أنه سوري

تلك الوثيقة التي أثبتت حضورها في كل أنحاء المعمورة.

اقترب من ضابط أمن المطار حتى أصبح لا يفصل بينهما سوى لوحٌ زجاجي وختم على ورقة ليدخل المدينة، مدّ ذراعه وبيده جواز سفره وهو واثقًا بأنه أنهى مرحلة من حياته عندما رماها بكل ما فيها في البحر قبل أن يعود للوطن ليبدأ بأخرى بعيدة كل البعد عن الماضي.

فتح الملازم الورقة الأولى من الدفتر ليقرأ اسمه، ثمّ قام بكتابة حروفه على أزرار الحاسوب ليقوم بتسجيله في بيانات القادمين قائلًا له: حمدًا لله على السلامة، أهلًا بك في حلب الشهباء.

ردّ عليه شاهين بهزة طفيفة برأسه يرافقها ابتسامة.

رفع الملازم جهازه اللاسلكي إلى فمه ليقول كلمتين بصوتٍ خافت، لم يَسنح الوقت إلى شاهين ليستنتج ما همس به الضابط، فَخلال ثوانٍ كان قد أُحكِمَ بأكمام قميصه من الطرفين من قِبَل رجلا أمن قَاداهُ إلى غرفة داخلية! ثمّ طلب أحدهما منه المكوث داخلها والإنتظار....

نظر شاهين إلى الكاميرا المعلقة على زاوية سقف الغرفة أخبرته أنه مُراقب، فأخذ يراجع أفعاله السابقة منذ طفولته إلى وقته الحالي فلم يجد ما يقلق الأمن الداخلي بشأنه....

فهو لم يدخل في عراكٍ جَماعي قَط

ولم يخرج في مظاهرات تندد بالنظام

لم يشارك بأي نشاط سياسي منذ نشأة أظفاره!

ولم يختلس مبلغًا من صندوق الدولة ثمّ يهرب به!

بل العكس تمامًا فقد شارك في حملة دعم الليرة السورية لرفع قيمتها أمام الدولار بإيداعه مبلغ ألف ليرة سورية في المصرف المركزي عندما أُقيمت تلك الحملة....

عاش حياة عادية جدًا، وُلد في مدينة حلب من أب موظف متوسط الدخل وأم كانت تعمل ممرضة في مشفى حكومي.... درس في مدارس حكومية حتى نهاية المرحلة الثانوية دون أي شكوى أو تقرير يُكتب بخصوصه، لقد خرج منها وسجله التعليمي نظيفًا... ثم أكمل تعليمه في جامعة حلب كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم الفلسفة إلى أن أنهى دراستها بدرجة جيد، ثم قام بتأدية خدمة العلم دون مشاكل وبعدها أصبح أستاذًا في مدرسة حكومية ثانوية للبنين وباجتهادٍ منه وصل إلى وظيفة المدير.... بعدها تزوج ثم سافر مع زوجته إلى لبنان ورجع... هذا كل شيء!

انقضى من الوقت قرابة الساعتين وهو مندهش لمَ آلت به العودة بعد غياب، لم يعرف بَعدْ ما سبب تلك الإستضافة الغير مجدولة في أجندة دفتر يومياته، إلى أن دخل عليه ضابط على كتفيه نجومًا تدل على رتبته وَيرافقه الرجلين الَذا اقتداهُ إلى الغرفة...

قام النقيب بتشغيل الحاسوب الموجود في الغرفة، ثم ضرب على أزراره فأضاءت الشاشة أمامه ليبدأ بعدها الحديث مع شاهين وهو يقلّب صفحات جواز السفر بين أصابعه سائلًا إياه:

أَقادمٌ من لبنان؟

ردّ عليه شاهين: نعم.

تابع النقيب قائلًا:

لقد مضى أكثر من سنة على تاريخ إنتهاء صلاحية الدفتر!

أجابه شاهين: نعم، لقد لاحظت ذلك من فترة قريبة جدًا.

سأله النقيب: ولِمَ لم تقم بتجديد الدفتر في السفارة السورية في بيروت؟

أجابه شاهين: كنت قد حسمت أمري بالعودة إلى حلب، وهنا سأقوم بعملية التجديد لو إحتاج الأمر للسفر مرة أخرى.

تابع النقيب أسئلته قائلًا: لمَ قررت العودة الآن يا شاهين؟!

كان النقيب يقرأ من شاشة الحاسوب البيانات المكتوبة عن شاهين والمعلومات المتعلقة به بعينٍ عليه وعينٍ على الشاشة المضيئة أمامه....

استطاع شاهين بفراسته أن يقرأ الريبة والحذر من انعكاس الشاشة على زجاج نظارة الضابط الطبية، فرّد على سؤاله قائلًا له:

لقد سافرت إلى لبنان لظروف عائلية، وعدت إلى هنا لظروف عائلية أيضًا.

توقف الضابط عن قلب صفحات الدفتر، وفتح صفحة منه أمام شاهين قائلًا له: وما هذا الختم إذن؟!

أليس هذا ختم الدخول إلى تركيا بتاريخ مضى عليه أكثر من ثماني سنوات! قبيل دخولك لبنان بشهر.... ثمّ اشرح لي لماذا لا يوجد ختم الخروج من الجهة السورية بذاك الوقت...!

حاول شاهين أن يربط جأشه ليُجيب بتأنّي:

وقتئذٍ لم يكن هناك طريق مفتوح بشكل مباشر يصل بين حلب ولبنان، فقد كان الطريق الدولي الموصل إلى العاصمة دمشق غير آمن لأسباب أنتم تعرفونها.... لذلك كان كل الذين يرغبون بالسفر إلى لبنان يتوجهون أولًا إلى تركيا ومن ثمّ إما يتابعون عن طريق

الجو من إسطنبول إلى بيروت أو عن طريق البحر من ميناء طُوشوجو القريب من مدينة مرسين إلى ميناء طرابلس....

أمّا بالنسبة لعدم وجود ختم خروج نظامي من سورية فقد كانت نقطة عبور باب الهوى التابعة لمحافظة إدلب مفتوحة بشكل مباشر إلى نقطة عبور الحدود التركية، وكل المغادرين من سورية آنذاك لم يتم الختم على دفاترهم بسبب عدم وجود أحد!

قاطعه النقيب قائلًا: ألا كان الأجدر بك مغادرة البلاد من باب السلامة فهو أقرب إلى حلب من باب الهوى.

أجابه شاهين: لقد كان الطريق الموصل لها شديد الخطورة بسبب النزاعات الحاصلة بين الفصائل المتواجدة هناك مع بعضها البعض.

قال له النقيب: ولذلك عليك مراجعة الأمن السياسي فرع السليمانية بشكل فوري لَتقوم بتسوية وضعك الحالي.

أجابه شاهين: حسنًا أيها النقيب.

ثم سأله النقيب: ألا تَملك جوّالًا؟!

ردّ عليه شاهين: كلا، فمنذ فترة أسبوعين لم أحمّل جوالًا معي.

سأله النقيب: وأهلك لا يعلمون بعودتك إلى البلاد؟

ردّ شاهين: نعم، لقد أردت أن أُفاجئهم بقدومي.

رفع النقيب جهازه اللاسلكي إلى فمه مناديًا الطبيب المكلّف في مراعاة الأمور الطبية في المطار، ثمّ وجّه كلامه إلى شاهين قائلًا له:

سوف يأتي الطبيب ليزرع في يدك تحت الجلد بين السبابة والإبهام شريحة إلكترونية ذكية بحجم حبّة الرز، نقوم من خلالها تعقبك ومعرفة مكان تواجدك بالإضافة إلى أنها مخزّنة بالسيرة الذاتية التي تحمل كل المعلومات المتعلقة بك من حين مولدك إلى الآن.....

ثمّ تابع قائلًا: لاتقلق فتلك الشريحة بدأنا بزراعتها لجميع السوريين القادمين من الخارج ونقوم بزراعتها على كافة موظفي القطاع الحكومي أيضًا، وقريبًا سوف تكون متوفرة في القطاع الخاص ولمن يود استخدامها لسهولة التعامل مع أي منشأة فيما بعد....

وقف شاهين مذهولًا لمَدى وصول سورية إلى التقنية الحديثة فتلك الشريحة قد سمع عنها من دول أوروبا، وتحديدًا من السويد التي بدأت المباشرة بالعمل بها كتَحديد لهوية الشخص للدخول إلى

مكان العمل، فضلًا عن دورها عند الدفع أو الإِستلام، ويتم فيها أيضًا تخزين المعلومات الصحية لحاملها وتسهيل أموره في الحياة اليومية.

تابع الضابط كلامه بعدما أصبحت الشريحة الذكية مزروعة في يد شاهين: كما قلت لك... إنهم ينتظرون زيارتك في الأمن السياسي فلا تطول عليهم، مع السلامة.

وقبل أن يذهب شاهين إلى منزل أهله للقائهم، خرج حاملًا جواز سفره متجهًا به إلى الأمن السياسي كما أمره المقدم.... فتلك الزيارة لا بد منها عاجلًا أم آجلًا ولا هروب منها طالما هناك ما يستدعي ذلك على الفور!

ثمة أمور لا يمكننا تجاهلها

لأن عدم الإكتراث بها تزيد أحوالنا سوءًا.

وما وصل إليه الرجل جعله من الأشخاص التوّاقون إلى الحقيقة أينما كانت، فعندما قرر أن يعود إلى الوطن إختار أن يبدأ من جديد راميًا كل الأحداث السابقة وراء ظهره إلى غير رجعة....

فهو لا يرغب بأي منها تعترض طريقه بين الآونة والأخرى، يريد أن ينتهي من كل شيء في الحياة الماضية ليبني لنفسه حياةً تليق بها وطريقًا لطالما أراد أن يكون فيه.

وفي صباح اليوم التالي من إقامته في مبنى الأمن قادوه إلى غرفة الضابط المسؤول فدخلها منهكًا من قلب الأفكار في رأسه دون نتيجة تُفسح عمّا يشغلها! فاستقبله الضابط قائلًا:

لقد وصلتني سيرتك الذاتية يا شاهين، ومن بعد الدراسة يبدو أن إقامتك ستطول هنا بعض الوقت حتى يتم وضع النقاط على الحروف وإيضاح أشياء عالقة في سجلاتنا....

أولها مغادرتك الأراضي السورية دون إذنٍ سفر مسبق خارج البلاد كونك موظف في القطاع الحكومي فأَوقعت نفسك بذلك في طرف المنشقّين عن النظام.

قاطعه شاهين قائلَا:

لقد تقدّمت في ذاك الوقت بطلب خطي للحصول على إذن بالسفر إلى لبنان وقد تمّ رفض الطلب بعد ثلاثة أشهر... فاضطررت إلى تقديم استقالتي من الوظيفة بشكل رسمي حيث لا أعود خاضعًا للتدقيق الأمني.

قاطعه الضابط: وقد سافرت خارج البلاد قبل الحصول على الموافقة لطلبك من الأمن السياسي بتقديم الإستقالة.

تابع شاهين: لا لشيء سوى أني كنت مضطرًا للسفر والموافقة الأمنية قد تتأخر إلى ستة أشهر فحسب....

عاد وقاطعه الضابط: بل لأَنكما كنتما مستعجلان للهروب أنتَ وزوجتك الأمريكية جاكلين، أليس كذلك....!؟ فَإتجهتما إلى تركيا أولًا عبر معبر لا يخضع للحكومة السورية حيث تَمكنتما من هنالك للهرب إلى لبنان....

قاطعه شاهين هذه المرة قائلًا للضابط:

عذرًا أيها الضابط فزوجتي ليس اسمها جاكلين!

أدار الضابط شاشة الحاسوب إلى جهة شاهين وقد كان عليها صور متعددة اللقطات لسيدة أجنبية، قائلًا له بصيغة السؤال:

أليست هذه زوجتك؟

دقق شاهين جيدًا في الصور والدهشة ملئت تعابير وجهه قائلًا:

إنها تشبهها كثيرًا! لكن ليست هي... فزوجتي اسمها جوليا وهي فرنسية الأصل؟ وقد توفيت منذ فترة وجيزة في المشفى بمرض نقص المناعة المكتسبة...

أخذ شاهين يسرد سيرة حياته مع جوليا من لحظة لقائه الأول بها إلى لحظة قراره بالعودة إلى الوطن وهو بحالةٍ يُرثى لها من درجة اليأس والإحباط...

نهض الضابط من وراء مكتبه متجهًا نحو شاهين ثمّ رفع يده ليربت على كتفه مواسيًا وهو يقول:

إنه لأمرٌ مؤسف يا شاهين أن تقع في ذات الحفرة عدة مرات

دون أن تتعلم أن تكرار الوقوع قد يؤدي إلى تحطيم القلوب.

يؤسفني أن أخبرك أن زوجتك صنعت منك دمية تحركها كيفما تشاء لتصل بها إلى مآربها في عملية لتَبييض الأموال جراء عملها في تهريب الأسلحة للجهات المعارضة ونقل المعلومات السرية إلى الدول التي تتآمر على خراب سوريا وزعزعة أمنها.

تجمّدَ شاهين من هول ما سمعه في حين تابع الضابط:

القصة بإختصار أن جاكلين عميلة أجنبية قامت بالكذب عليك في كل حرف قالته لك، وكل شيء كان مخططًا له برفقة صديقك ساطع للتغطية عن أعمالها وتسهيل عمليات أنت تجهل مدى خطورة تنفيذها في خضم ما مرت به البلاد....

لقد دخلت سورية بشخصية مزورة بناءً على إقتراح الخائن ساطع ليعملا معًا وفق تعاون مشترك بين عصابات إرهابية وتنسيق خارجي لعمليات تفجيرية تمت داخل سورية أدت إلى قتل مدنيين وتشريد الكثير منهم، وإلى دمار في المؤسسات الحكومية وسرقة آثار تاريخية ثمّ تهريبها إلى الخارج...

تمّ توقيف ساطع بالصدفة بعد مغادرتك البلاد في قضية بعيدة كل البعد عمّا سبق، لقد كان مريضًا بفيروس الإيدز وكان يقوم بنقل المرض عبر علاقات جنسية غير مشروعة إنتقامًا لنفسه بعدما أُصيب به هو الآخر بعدوى من إمرأة مريضة عقب سفره المتكرر إلى البلاد الأجنبية....

لكن مشيئة القدر أرادت أن تفضح بإعترافاته أشياء مهمة جدًّا جعلتنا نفتش عن خيوط أودتنا لحقائق خطيرة.

وَبالتعاون مع السلطات اللبنانية وصلنا إلى شخصيات متورطة قادتنا إلى شبكة كبيرة تغطي معظم الأعمال المخالفة للقانون الدولي من تجارة الأعضاء إلى الإتجار بالبشر...

تقدم الضابط خطوات ليقف أمام شاهين ويجلس على الكرسي المقابل له متابعًا له وهو يقول:

نحن لا نريد أن نسبب لك المزيد من الصدمات لأننا نعلم ما مررت من حالة سيئة كان سببه الإنهيار العصبي والصدمة النفسية التي وقعت بها.

كنّا نتابعك منذ سنوات وَأجزمنا أنه لاعلاقة لك بما حدث، فقد قمنا بمراقبة حساباتك على مواقع التواصل ومنه استطعنا أن نَخترق جهازك الجوال ونطلع على كل ما تقوم عليه بواسطته....

بالإضافة إلى جارك الذي يقطن في الجهة المقابلة لمنزلك قد كان من رجالنا الأكفاء واستطعنا من خلاله معرفة ما يدور بينك وبين جاكلين داخل المنزل....

باتَ شاهين كتمثال أبو الهول على وقع الأخبار التي سمعها ...

فإن ثارت براكين الأرض بأكملها بعد ذلك أو أغرقها ذوبان جليد القطب الشمالي، لن يبالي بأي أمر.... حتى وإن اندلعت حربٌ عالمية ثالثة سيبقى مكانه لن يكترث لما سيؤول عليه هذا الكوكب.

لقد تجاوز كل ما مرَّ به على أنه نصيب وقدر لا بد من شرّه،

لكن أن يّزج به في قضايا تمس أمن وطنه وهو بعيد عنها كل البعد فهذا كثير... كثير جدًا على شخصٍ شريفٍ يعشق بلاده ومستعد للتضحية من أجل سلامها، إنها كارثة حقًا أن يقوم شخص خائن بإستغلال أقرب الناس إليه في أعمالٍ دنيئة...

شيء لا يحتمله العقل ولا يستوعبه المنطق.....

لربما نستطيع أن نسامح من أساء لنا في الأمور الشخصية

لكن لا نغفر أبدًا لمن يُسيئ إلى وطننا ولو بحبة تراب واحدة

وبالرغم من كل هذا ما تزال هناك أكاذيب تعيش في حقيقة واحدة اسمها الحياة.

انتبه الضابط على ما أصبح عليه شاهين من حال صعبة فأردف قائلًا:

الأفضل أن أقف هنا، كفاك ألمًا بما عرفت فلن تقدر أعصابك المهترئة على تحمّل المزيد....

أمّا بالنسبة إلى مغادرتك البلاد دون إذن سفر فلحسن حظك قد تمّ إصدار عفو عام من رئاسة الجمهورية لجميع موظفي قطاع الدولة الذين غادروا البلاد دون إذن شريطة أن يقوموا بتسوية وضعهم في حال عودتهم إلى أرض الوطن، وقد شملك العفو يا شاهين وليس على عاتقك أي حكم....

أمّا عن كلامي في أول اللقاء حول استضافتك عندنا ليس سوى دعابة أردت ممازحتك بها، بإمكانك الذهاب على الفور....

نهض الضابط من مكانه ليتوجه نحو باب الغرفة فيقوم بفتحه ودعوة شقيقه بالدخول إليها متابعًا:

قمنا باستدعاء أحد أفراد عائلتك كي يرافقك إلى الخروج، من الواضح أن حالك لن تكون بخير في الفترة القادمة.

ثم تابع قائلا:

مبارك نجاح كتابك شبابيك القفص الذهبي، لقد قرأته pdf إنه رائع

أريد منك نسخة ورقية موقعة باِسمك.... نتمنى لك إقامة دائمة في حضن الوطن، ولتكن هذه العبارة مزروعة في رأسك...

في كل بقاع الأرض لا يوجد خيارًا للوطنية

مهما حاولنا من تجارب لِإستنساخ نمازج أخرى

يبقى لكّلِ شخص منّا

قلبٌ واحد ... وطنٌ واحد.

مــاريــونت

رواية

نـور شحط